الناس والحب
١٩٦٦

الاهـــداء

الى روح انور المعداوى

النـــاس والحـــب

اذا كنت ممن يركبون المواصلات كل صـــباح ليذهبوا الى عملهم ، فلابد أنك قد مارست هذه العلاقة الغريبة التى تربطك لمدة ساعة أو أقل أو أكثر بناس لا تعرفهم ، ولم تكن لك أقل حرية فى اختيارهم ، وقد يبدو من الصعب أن تجد لهذه العلاقة اسما ، أو حتى تحدد لها طعما ، فهى فى كل مرة تختلف باختلاف الشخص الذى يجلس أو يقف بجوارك ، قد تستريح اليه ، أو تنفر منه ، وأحيانا يمضى الوقت دون أن تشعر بوجوده ٠

غير ان شيئا ما سيحدث بعد مرور أيام أو اسابيع ، ستجد أنك بدأت تألف بعض هذه الوجوه التى يتكرر لقاؤك معها كل يوم ٠ انها قد تتأخر قليلا أو تبكر ، ولكن لقاءك معها ســـيتكرر حتما ، وستجد أن عينيك قد بدأتا تتدربان على أشكال الركاب ، وخاصة أزياءهم ، وستجد أن مشاعر باهتة ومؤقتة بدأت ترتبـط بوجودهم وأحيانا بغيابهم ، وتدرك أن علاقتك بهم تدخـــل فى طور جـديد ،

بحيث لا يمكنك أن تنكرها تماما ولكنك فى الوقت نفسه لا تستطيع أن تعترف بها ...

ومن الممكن أن تتجمد هذه العلاقة فى هذا الوضع .. ومن الممكن أيضا ، كما حدث لى ، أن تدخل فى طور جديد مثير ... وفى الواقع اننى لا أستطيع حتى الآن أن أحدد اللحظة الحاسمة التى بدأت فيها علاقتى بأتوبيس (٩) تدخل فى هذا الطور الجديد .

فى البداية كنت قد ألفت بعض الوجوه ، وكنت أتبادل معها التحية أو السؤال عن الوقت ، أو السخط على المواصلات ، وبمرور الوقت كانت الوجوه التى ألفتها قد بدأت تتراجع الى الوراء ويلفها ضباط ثقيل لتفسح المكان أمام وجهين .. وجهين أصبحت لا أبصر غيرهما .. وجه شاب وفتاة لا أعرف لهما اسما ، ولا أعتقد أنى سأعرفه فى أى يوم ..

كانا طالبين ، يركبان معا من ميدان المحطة ، وينزلان فى محطة الجامعة . تأتى هى أولا ، أو يأتى هو ، فيتحول الوجه المتنظر الى مجرد عينين قلقتين ، وفجأة - ويحدث هذا كل يوم وكأنه يحدث لأول مرة - يستحيل التطلع القلق الى التماعة مشرقة، وتتصافح يدان ، وترق ملامح الوجهين وتنبض ، ويدور الحديث همسا الى الحد الذى تعجب كيف يسمعانه ، وتدهش كيف يكون لبعض الكلمات مثل هذا التأثير حين تبصر عينى الفتاة ، وقد تألقتا ببريق عذب تتلاشى بجواره كل مظاهر الحياة ، فى هذا الميدان الفسيح ، وفى مثل هذا الوقت !! وتصبح العينان السعيدتان هما الشىء الوحيد الذى يستأثر باهتمامك . !

وأحيانا يسرق الميدان الصاخب عينى الفتاة للحظات ، فتدور برأسها يمينا أو شمالا ، وقد تسوى شعرها دون أن يكون الهواء

قد مسه ، وقد تقف على قدم واحدة وتضرب الأرض بالأخرى ضربات خفيفة ولكنك ستشعر مع ذلك ان احساسها بالشاب الذى تقف بجواره لم يبعد عنه قيد أنملة ، وأنه ·· بشعره القصير الخشن ، وعينيه اللتين تتابعانها من خلف منظاره الذهبى ، ووجهه المستدير المكتنز ، هو كل شىء فى هذا الميدان بل فى هذا العالم ·

وحين تأتى العربة ، ويندفع الناس نحوها بطريقة يبدون معها وكأنهم فقدوا صوابهم فجأة ، أشعر بنوع من الضيق ، لأن الشاب والفتاة يفقدان أثناء ركوبهما وسط هذا الاندفاع الأحمق ذلك الاطار الغامض الذى لا يرى ولكن يحس ، والذى كان يلفهما معا ، وهما واقفان ، ويجعل منهما شيئا مختلفا عن كل من حولهما من البشر · انهما يبدوان للحظة مبتذلين وسط عشرات الأيدى والأرجل المتدافعة ، ولكن ما ان يستقر بهما المكان على مقعدين ، أو متجاورين فى ممشى العربة ، حتى يلفهما من جديد ذلك الاطار الغامض ، والذى يكتسب داخل العربة شيئا من الوجود الفعلى · فقد كنت الاحظ أن الركاب حولهما يصنعان ـ وربما دون قصد ـ دائرة من الفراغ تسمح لهما وحدهما بأن يتحركا فى يسر وتكاد تمنع عنهما عدوان الأيدى والأرجل التى تتشابك فى كل جزء آخر من العربة ، وتمضى العربة وتتتابع هزات الركاب مع كل منحنى وكل اشارة ، وتضيق دائرة الفراغ على الشاب والفتاة ، ويغرق همسهما وسط ضجيج العربة وأحيانا يختفيان عن عينى ، وأحيانا ألمح خصلة من الشعر ، أو يدا مشدودة الى سقف العربة ، أو ذراع المنظار الذهبى مع حركة الرأس فيبقى احساسى بوجودهما الفريد وسط هذا الحشد البشرى الثقيل ، وحتى حين يهبطان ، ويغيبان خلف أسوار الجامعة فانهما يبقيان فى رأسى بطريقة مابعض الوقت ··

كان وجود الشاب والفتاة قد جعل لعلاقتى بأتوبيس (٩) مذاقا خاصا وأصبح هذا الجزء من النهار يشيع حواليه امتدادا بهيجا من الانتظار والتذكر ، ولم يكتف الشاب والفتاة بهذا الجزء من النهار : كانا يتسللان الى بقية اليوم ، ويلقيان بظلهما الرقيق على همومى اليومية فلا أكاد أحس بها ..

ولا أدرى الى متى ظللت أعتقد أننى وحدى الذى يتابع بشغف هذه القصة من قصص الحب التى اختارت أتوبيس (٩) مسرحا لبعض مشاهدها . !

أغلب الظن أننى لم أكتشف أن جميع الركاب كانوا يملأون حولى مقاعد المسرح ويتابعون بالاهتمام نفسه المشهد نفسه الا فى ذلك الصباح الذى خلا فيه أحد المقاعد . ومع أنهما (الشاب والفتاة) لم يكونا أقرب اليه من أى شخص آخر ، فقد أشارت اليهما أكثر من يد ، لتجلس الفتاة على الأقل ، وترددت الفتاة قليلا ، ربما فضلت أن تبقى بجوار صديقها ، ولكنه هو الذى حسم الموقف حين أشار اليها أن تجلس . الى هنا وكل شىء يمكن أن يقبل على أنه مجاملة لآنسة واقفة ، ولكن ماحدث بعد ذلك هو أن الشاب الذى كان يجلس فى المقعد المجاور لها ، ترك مكانه هو الآخر ، وأشار لصديقها ليجلس بجوارها ... وتردد صديقها لحظة ، وسرعان ما جلس ، ربما فكر أن الشاب نازل فى المحطة التالية ، ولكن المفاجأة كانت فى أنه لم ينزل . فى هذه اللحظة بدأت أدير عينى فى جميع الوجوه القريبة ، وجوه الشباب والكهول والنساء : كانت جميعها تنهى تطلعها القلق باختلاس النظر اليهما ، كنت أشعر أن وجودهما أصبح يتجاوز المقعد الذى يجلسان فيه ، وأن كل حركة تصدر عنهما تشد خيطا من هذه الخيوط التى لا ترى ، والتى تربطهما بالركاب ، فيدور رأس أو يمتد عنق أو تختلج شفتان

بالحديث ، أو تطرف عينان حتى لا تشى نظراتهما بتلك الراحة الغامضة التى تخفيها القلوب وتكاد تفضحها العيون ٠

منذ ذلك الصباح اكتشفت أن اهتمام الركاب بهذا المشهد لا يقل روعة عن المشهد ذاته ٠٠ بل لقد أصبح جزءا منه ٠٠ وبمرور الوقت أصبح الناس هم أكثر الأجزاء اثارة ٠ كان الراكب الذى يظفر بمكان قريب منهما لا يفرط فيه ، والراكب الذى يبعده الحظ عنهما يتعب عنقه كثيرا فى اختلاس النظر اليهما ، وان كان يتمتع بحرية أكثر فى التعليق عليهما ٠ وكما يحدث فى المسرح حين يرتفع الستار أن ترتفع فى الوقت نفسه الحواجز المصطنعة بين جميع الرواد فيتبادلوا دون معرفة سابقة المشاعر وأحيانا التعليق على المشاهد ، كان يحدث الشىء نفسه فى العربة ، بين كل راكبين يتجاوران فى المقعد أو الممشى ، ويتكرر ركوبهما معا ٠ كانت قصة الحب ذات المشهد الواحد ـ الذى لايتغير كثيرا ولكنه لا يمل أبدا اذ أصبحت موضوع الحديث ، والخيط السحرى الذى يربط هذا الحشد الغريب ، ويوحد بين مشاعره التى ما كانت لتتحد فى مثل هذه العربة الا حين تواجه كارثة ٠ !

والشىء الغريب انه فى الوقت الذى كانت فيه الحواجز المصطنعة بين الركاب ترتفع ، كان الشاب والفتاة يبدوان ذاهلين عن كل من حولهما من الناس آمنين لذلك الاطار الوهمى الذى يفصل بينهما وبين الركاب ٠

ربما بسبب من هذا الاطار الوهمى ، حدث ما حدث ، فقد كان يحدث أحيانا أن يمد الشاب يده ليفتح زجاج النافذ المجاورة ، فينسى يده على ظهر المقعد أو على كتف الفتاة ، وكان يحدث أن يقترب من أذنها ليهمس ببعض الكلمات فلا تنتهى الكلمات ، أما

حين يكونان واقفين فى الممشى ، ويتأرجح الركاب ، وتتأرجح معهم الفتاة ، فانه كان يحيط كتفيها بذراعه حتى لا تسقط ، فتقترب منه فى وداعة ، وتنسى كما ينسى هو ، ان العربة قد عادت تسير سيرها الطبيعى دون اهتزاز .

ربما بسبب من هذا كله ـ وربما بلا سبب ، فقد كانت مثل هذه الأشياء تحدث ... منذ كانا يركبان معا ـ بدأت العربة ترسل أول صيحة اعتراض على قصة الحب التى كانت تتابعها فى شغف صامت . والغريب ان العربة التى لم تتجاوز أبدا مرحلة الهمس فى التعبير عن شغفها ، لم تتردد فى أن يتحول الهمس الى صيحة حين أرادت أن تعلن معارضتها ..

وكما يحدث فى المسرح أحيانا ، كانت الصيحة تأتى من الصفوف الخلفية مجهولة المصدر .. ـ متقطعة ـ « دول زودوها قوى » .

ـ « هما فاكرين نفسهم فين . »

ـ « مش يراعوا شعور الناس يا أخى » .

ولكن من المؤكد أن هذه الأصوات لم تكن تعبر عن رأى العربة كلها ، فقد كانت بعض الوجوه لا تخفى ضيقها بهذه الاصوات . ولكن هذا الضيق كان يظل صامتا دائما ، وبدا أن العربة تعانى من انقسام حقيقى فى موقفها من الشاب والفتاة ، كانت الأصوات المعارضة تتزايد وترتفع وتزحف الى الصفوف الامامية ، وتكاد تمزق الاطار الوهمى بينما ظلت الوجوه المتعاطفة لا تفعل شيئا ، لقد بدأت تحت تأثير المعارضة تحاول أن تخفى ضيقها .

ولكن الشىء الوحيد الذى كانت العربة كلها لاتزال تفعله هو اهتمامها الغريب بالشاب والفتاة ، ذلك الاهتمام الذى لم تكن الأصوات المعارضة سوى أحد وجوهه الكثيرة المعقدة ..

ولقد بدا هذا الاهتمام بأخذ صورة جديدة حين مضى يوم ويومان وثلاثة دون أن يحضر الشاب والفتاة فى موعد كل يوم ·· ولقد كانت هذه الأيام الثلاثة كافيـــة لأن يكتشـــف كل راكب أن المسألة ليست تأخيرا أو تبكيرا فى الركوب بالنسبة له ·

فقد كان من الطبيعى دائما أن يختلف موعد ركوبهما بالنسبة لبعض الركاب عادة ·· أما فى هذا اليوم الثالث ، فقد كانت العربة كلها تفتقدهما معا ·

ولأول مرة بدا حوار المؤيدين والمعارضين فى جوانب العربة · قلت لجارى الذى كنت أعرف أنه من المعارضين ، وكأننى أحمله مسئولية ما حدث :

ـ أترى ·· لم يحضرا منذ ثلاثة أيام ؟

ـ كنت أتوقع ذلك · لم تكن بينهما علاقة جادة ·

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ لم يكن فى أصبع أى منهما دبلة · !

ـ لا يزالان طالبين ·

ـ جائز انه يضحك عليها ·

ـ لا يبدو ذلك ، فمظهره جاد ·· و ··

ـ أنت الآن تفكر مثلها (ثم ضـاحكا) ·· هل وقعت بدورك فى غرامه ؟

ـ العربة كلها كانت واقعة فى غرامهما معا ·

ـ لو كانا خطيبين ما ضاق بهما أحد ·

ـ ألا يكفى انهما حبيبان ؟

– يكفيهما . أما العربة ؟

– ولماذا تحشر العربة نفسها فى الموضوع ؟

– انهما اللذان يحشران نفسيهما فى العربة .

وضحكنا معا ..

ومضى يوم آخر وثان وثالث دون أن يعودا ايضا ، وسيطر على العربة كلها شعور كئيب بأنها فقدت شيئا ، وتحول الانتظار فى جميع العيون الى يأس ، وكفت الرءوس عن الحركة ، وتلاشت الحدود الفاصلة بين المؤيدين والمعارضين ، وشمل الجميع احساس خفى بالذنب ، وكان الحوار لا يزال يدور فى العربة ، ولكنه لم يعد حوارا .. كان صوتا واحدا ترددده العربة بأفواه كثيرة ، وكأنها تحدث نفسها ..

– أتعتقد انهما سيرجعان ؟

« لا أدرى ، ربما ..

– كانا رائعين .

– أتعرف ، لم أعد أطيق العربة .

– لقد فكرت أن آخذ عربة أخرى .

– ولماذا لم تفعل ؟

– أحيانا أفكر انهما سيعودان .

– ليس هناك أجمل من رؤية حبيبين .

– لماذا يولع الناس بتحطيم الأشياء الجميلة ؟

– العربة هى التى ..

ـ ربما لم يفترقا ، وربما حدث بينهما خلاف ٠

ـ كل شىء جائز ، ولكـــن هذا لن يغير الموقف بالنســـبة للعربة ٠٠

ومضت أيام أخرى ، ولم يعودوا ، وبدأ اتوبيس (٩) يصبح مجرد عربة والناس مجرد ركاب ، وتقطعت الخيوط الخفية التى كانت تربطهم وتحرك رءوسهم وأعناقهم ، وغاض فى العيون ذلك التوقع الخجول المضطرب لتطل منها هموم كل يـــوم ، وتحولت العربة الى مجرد مكان تلتقى فيه كل صباح عشرات الأيدى والأرجل وتتزاحم ، وتضج بالشتائم والاعتذارات ٠٠

وفى أحيان كثيرة فكرت فى أن أغير طريقى ، ولكنى لم أفعل ، لا أدرى لم ؟

ذات صباح فوجئت بأن الفتاة ٠٠ أجل الفتاة التى لا أعرف لها اسما ٠٠ تجلس بجوارى ٠٠ كيف لم أتنبه لوجودها قبل هذه اللحظة ؟ انها هى بعينها ٠٠ ولكنها كانت وحدها هذه المرة ، وكدت اسألها أين ٠٠ أين ذهب ؟ ولماذا ؟ وفكرت أنها ربما عادت قبل اليوم ٠٠ كان من الصعب أن اتنبه الى وجودها وحدها ٠٠٠ كانا دائما يبدوان معا ٠٠ ان شيئا فيها لم يتغير ، ومع ذلك فهى تختلف تماما عن الفتاة الأخرى التى كانت تجىء معه ٠

يجب أن يكونا معا دائما حتى يحدث ذلك الشىء الرائع الذى يجعلهما مختلفين عن كل من حولهما من البشر ٠ كانت مطرقة ، وكانت تطل من عينيها نظرة غريبة كأنها لا تبصر بها شيئا ٠٠٠ ويدها ملقاة بجانبها وشعرها لا يحركه ســوى الهواء ٠ وتذكرت أننى أجلس فى مكانه ٠٠ وأدرت رأسى فيمن حولى كأنما خشيت ان يكتشف أحد من الركاب وجودها ووجودى فى هذا المكان الذى كان له ، وخيل الى أن بعض العيون ترمقنى فى ضيق ، وتململت

فى مقعدى ·· الفتاة لا تزال مطرقة والعيون التى تكتشف وجودها تتزايد وتتسع حدقاتها ، والوجوه تقترب فيما بينها وتهمس ، وتنم ملامحها عن أسى مشوب بالشفقة ·· لماذا جلست فى هذا المكان اللعين ؟ وخيل الى أننى لو تركت مكانى لما جلس فيه أحد ممن يعرفونها · لماذا تحاصرنى كل هذه العيون ؟ الفتاة وحدها هى التى لا تشعر بشىء ·· كانت هذه المرة سجينة اطار آخر ·· اطار لا يسمح لها بأن تتحرك ·· ولكنها كانت وحدها فى داخله ·· العربة لاتزال تسير ، والطريق لا ينتهى ، والركاب الذين يعرفون القصة يديرون رءوسهم قبل أن يغادروا العربة ليلقوا نظرة أخيرة ·· وأصبحت عاجزا عن أن أواجه العيون ·· وأنقذتنى النافذة ·· ومع ذلك فقد كنت أشاهد العربة فى قلب الطريق ، والعيون فى داخلها تتقارب وتمتزج وتصبح عينا واحدة كبيرة فى رأس واحد كبير يملأ العربة ، يملأ فيها كل مكان ، فلا تستطيع الفتاة أن تتحرك ·

***

فى الأيام التالية ، كانت الفتاة تركب وحدها ايضا ، وكانت العين الكبيرة قد كفت عن التحديق ، واختلط بنظرتها المشفقة أسى تحول مع الأيام الى لامبالاة ، وعادت هموم كل يوم تحطم العين الكبيرة الى عشرات العيون وتشتت نظرتها فى كل اتجاه · حتى عيناى كانتا أحيانا لاتبصرانها ، وفى المرات التى كنت أراها عن قرب ·· كانت تبدو لى ضئيلة الى حد كبير ، ولا تفترق كثيرا عن غيرها من الفتيات ، وكنت أدهش كيف ظللت أياما كثيرة لا أبصر

غيرها كل صباح ، وكيف لم الاحظ قبل هذه الأيام ، انها شاحبة دائما وأن خديها بارزان قليلا ، وجبهتها عريضة أكثر مما ينبغى ..

ومع ذلك ففى أحيان كثيرة ، وأنا أسير فى الطـريق ، أى طريق فيه ناس ، كان يولد فى نفسى حلم غامض يأتى . سألتقى بهما يوما ، يسيران معا ، ومع انه قد مضت شهور كثيرة ، انقطعت الفتاة خلالها عن ركوب العربة ، وانقطعت أنا ايضا ، فما زال هذا الحلم يولد فى نفسى ، وبالأخص حين أشاهد شابا وفتاة يسيران معا ، فى أى مكان . !

العنـكبوت

كان « شاكر » يرتشف آخر جرعة فى قدح القهوة حين سمع « رءوف » الذى يجلس الى المكتب المجاور يقول :

ـ صاحبكم لم يحضر بعد ٠

وتوقفت عينا « شاكر » لحظة عند المكتب الوحيد الخالى فى الحجرة وقال :

ـ : يا أخى تذكر شيئا طيبا ! ٠

وفى اللحظة نفسها التقت عيناه بعينى سمير الذى كان يجلس قبالته ، فقال سمير وهو يجتذب نفسا من سيجارته :

ـ يبدو أنك تصالحت معه ٠

أجاب « شاكر » وملامحه الدقيقة تعكس احســـاسا طارئا بالخجل والاعتذار :

– الصلح معه كالخصام قدر لا مفر منه .

ثم التفت جهة رءوف وهو يتـــابع : وعلى كل فقد كان هذا رأى رءوف .

اهتز جسد رءوف القصير الممتلىء بضحكة خرجت من أنفه وارتفع صوته الخشن الذى تتدفق فيه الكلمات :

– لاتنس أنك اقتنعت بوجهة نظرى فى الموضوع ، ومع ذلك فأنت ضربت الرقم القياسى فى مقاطعته .. أنت أول شخص فى المصلحة كلها يقاطعه أسبوعين .

قال سمير ووجهه الوسيم يختفى خلف سحابة الدخان التى يرسلها من فمه وأنفه .

– كان فيهما الكفاية لتصبح سـيرة « شاكر » العاطرة على كل لسان فى المصلحة كلها ، مع أنـه لم يمض على تعيينه ســوى شهرين !

فى تلك اللحظة فقط تدخل « عوض » فى الحديث ، وهو يفعل ذلك عادة على نحو مفاجىء بينما يظنه الجميع منهمكا فى العمل !

قال عوض ومنظاره القاتم يخفى نظرة مداعبة :

– لم تكن عاطرة تماما وهى تخرج من فمه !

قال شاكر وهو يبتلع مداعبة « عوض » ، ويعبث بأطراف ورقة أمامه :

– تصوروا ، كنت ألمح فى عيون الموظفين فى المصلحة كلها نظرة غريبة كلما التقيت بأحدهـم فى مكتبـه أو على الســلم ، ولا أستطيع مجرد الاستفسار أو توضيح الأمور !

قال « سمير » وهو يدفن بقايا سيجارته فى المنفضة الموضوعة أمامه :

ـ لا تهتم بهذا كله ، فالجميع هنا يعرفونه ، ولا يصدقون الأكاذيب التى يرويها ، فكل واحد منهم كان يوما موضوعا لها !

قال شاكر محتدا :

ـ ومع ذلك ، فالجميع يهادنونه ، ويطلبون له القهوة بينما يردد الأكاذيب عن أحد زملائهم ، ورءوف لم ينصح الا بمهادنته ، ولو اتخذ الجميع منه موقفا واحدا لما وجد مستمعا لأكاذيبه ٠

فى هذه اللحظة دخل الفراش يحمل صينية حمل فوقها الأقداح الفارغة وخرج ٠ وساد الحجرة صمت طارىء قطعه صوت سمير :

ـ ليس من السهل أن يتفق الجميع على مقاطعة شخص ولو كان صاحبنا !

قال شاكر :

ـ لماذا ؟ أليسوا جميعا متفقين على أنه وغد ، وأن أقواله مجموعة من الأكاذيب ؟

من جديد ساد الصمت ، ومن جديد تدخل « عوض » من خلف المنظار القاتم وقال بلهجة هى مزيج من السخرية والدعابة :

ـ لو أنهم اتفقوا جميعا على مقاطعته لأصبح شهيدا ، ولا أظنك ترضى له ذلك ، هو هكذا فى موضعه الصحيح ؟

قال « شاكر » وقد أحس أنهم جميعا يهربون من مواجهة الموقف جديا :

– لست أفهم سوى أنه وغد حقير ، واذا كنت قد تصالحت معه ، فلأننى مصمم على أن ألقى عليه درسا لو ذكر امامى شخصا بسوء !

قال « رءوف » وهو يضحك من أنفه :

– ألا ترون ان فيه شيئا لله .. لقد تأخر اليوم قليلا .. وها نحن لم نصبر على ذلك ، فلم نكف عن الحديث عنه . !

قال سمير :

– وحتى لو جاء فى موعده ، ما حدث شىء ، فمنذ عقد صلحه الأخير مع « شاكر » وهو فى حالة هدنة !

وجاء صوت « عوض » كالعادة :

– انها أسوأ حالاته ! حيث تتعطل جميع مواهبه .

قال سمير :

– أراهن أن هذه الهدنة لن تستمر أكثر من أيام !!

تدخل « رءوف » قائلا :

– الرهان الحقيقى يكون على الشخص الذى ستنقض الهدنة بسببه !

– فرد سمير : أعتقد أنه سيكون الرئيس هذه المرة .. بسبب تأخره على الأقل .. !

***

كان « شاكر » قد انقطع عن متابعة الحوار ، وتظاهر بالقراءة فى الملف الموضوع أمامه حتى لايشترك معهم فى الحديث .

صحيح أنه حديث عهد بالوظيفة ، ولكن المدة التى قضاها كانت كافية ليفهم كثيرا من الأمور هنا : ان رءوف وسمير وعوض معقولون جدا ، ولا يتردد لحظة فى اعتبارهم اصدقاء ، ولكن ما لا يفهمه أبدا هو تلك الطريقة التى يعاملون بها « حسن » ، فمع أنهم يلعنون اليوم الذى أتى به الى هذه المصلحة فان واحدا منهم لا يتصرف بحزم ازاء سخافاته . كان من الممكن أن يفهم سلوكهم هذا لو أن « حسن » يتمتع بأى نفوذ أو سلطة فى العمل ، ولكن الغريب أن وضعه كموظف فى غاية السوء ، فلفت النظر ، والانذارات ، والخصومات ينفرد بها وحده ، ولا يتورع عن أن يجد فى هذا كله مايؤكد به أنه يركب الحكومة بدلا من أن يدعها تركبه ، غير معقول أن الدافع الى مهادنته حرصهم على ألا يكونوا موضوعا لأكاذيبه كما حاول رءوف أن يقنعه ، فلا يبدو أن أحدا هنا يصدق كلمة واحدة مما يقول ! وليس لمهادنته سوى معنى واحد ، هو أنه يصبح حرا فى أن يزعج المرء بسخافاته التى أقلها رواية الأكاذيب عن زملائه ..

انتبه « شاكر » على صوت ضحكة أطلقها « رءوف » بجواره وهو يقول :

ـ يظهر أن « شاكر » لم يكن معنا !

كان سمير هو الذى يتكلم حين ضحك رءوف ، وكان ينهى حديثه بهذا السؤال :

ـ ماذا نفعل اذا كان الرئيس نفسه بسلطانه لا يفعل شيئا ؟

قال « رءوف » وهو يمسح الرذاذ الذى تطاير من فمه مع الضحك :

ـ الرئيس لا يعرف من نقائصه الا ما يتعلق بالعمل .

وتدخل عوض كالعادة : ـ أعتقد أن الرئيس من هذه الناحية ليس حسن الحظ ، فالحواجز الطبقية تحرمه من أن يعرف مايقوله « حسن » عنه !

قال رءوف : ـ هذا يحتاج الى « حسن » آخر فى المصلحة !

وهنا فقط قال شاكر : ـ نقائص العمل وحدها تكفى ليطلب الرئيس نقله !

قال عوض وهو يكسب نبرته الساخرة جدية مفتعلة :

ـ يا جماعة ، لا تظلموا الرجل ، فوجوده فى المصلحة لايخلو من فوائد . انه يضحى بنفسه لنبدو جميعا ـ رغم مافينا من عيوب ـ فى صورة الموظفين المثاليين ، ومع هذا فأنتم لاتعترفون بالجميل .

***

فتح الباب فجأة فساد الصمت ، وبرز وجه فراش تملؤه التجاعيد وسأل :

ـ الأستاذ حسن حضر ؟

ـ لم يحضر !

ـ الريس يريده حين يأتى ! قالها الفراش وهو ينصرف ..

ـ كسبت الرهان ! قالها سمير بزهو .

ولم يعلق أحد ، وبدا كأن الجميع قد سئموا فجأة سيرته ، تصلبت ملامح « عوض » وغرق فى العمل وفتح « سمير » درج مكتبه وراح يقلب فيه . واختفى وجه « رءوف » خلف أوراق الجريدة التى فى يده ، وبدا وجه « شاكر » وحده ساهما حزينا ، لم يتخلص

من الموضوع وان كان يؤثر أن ينفرد بالتفكير فيه « أيمكن أن يأتى يوم يصبح فيه مثلهم لا يرى فى هذا كله الا شيئا يمكن أن يتسلى به ؟ وعكست ملامحه شعورا بالاشمئزاز ، لماذا لا يخلصهم منه ؟ لماذا لا ينفذ تلك الفكرة الجريئة التى تلح عليه ؟ لن يسمح له أبدا بأن يذكر أمامه مخلوقا بســـوء واذا فعل فلن يتورع عن ضربه · صحيح أنه لم يفعل طوال حياته شيئا كهذا ·· لم يعاقب حتى أخاه الصغير بالضرب ، ولكنه يكتشف الآن أن ذلك هو السلوك الوحيد الملائم لشخص مثل حسن ، الغريب أنه ضعيف البنية ، ووجهـه شاحب كما لو كان يحس عواطف الناس نحوه بطريقة ما ويستطيع أقل شخص أن يجعله يصرخ ، أو الناس مثله يحتمون فى العادة بأى شىء ، بالأخلاق الطيبة أو بالعمل أو بالذكاء ، ومع انه لا يملـك شيئا من هذا كله يبدو دائما آمنا وواثقا من أن أحدا لا يجرؤ على أن يقتحم حصنه المنيع · وفى تلك اللحظة وقعت عينا شاكر فجأة على خيوط عنكبوت تملأ جزءا من الفراغ العلوى خلـــف الباب المغلق ، كيف ينســى الفـــراش أن ينظف مثـــل هذا المكـــان ؟ وكيف لم يبصره قبل هذه اللحظة مع انـــه يقـــع فى مواجهـــة مكتبه ؟ واختفى العنكبوت حين فتح باب الحجرة وظهر فى فتحته حسن بوجهه الشاحب وعينيه اللتين تتوثب فى بياضهما الذابل نظرة سليطة متحفزة ·

ـ صباح الخير ··

قالها « حسن » دون أن يتحرك من فتحة الباب بل مد ذراعيه باتساع الفتحة وثنى احدى رجليه وأمال عنقه بحيث تصبح احدى عينيه فى اتجاه عوض ·

ـ صـــباح الخير ! لماذا تأخرت ؟ قالهـا عـوض دون أن يعكس صوته أدنى انفعال !

– الريس سـأل عنـك ! قالها رءوف ، ثم أردف حين لم يرد « حسن » : أدخل وأغلق الباب ، فالجو بارد !

قال « حسن » واحدى عينيه لا تزال موجهة الى عوض :

– الا تريدون أن تعرفوا لماذا تأخرت ؟

– وما علاقة ذلك بوقوفك هكذا ؟

– سيمر الجواب من هنا بعد قليل . ولا بـد أن يبقـى الباب مفتوحا لتروه .

دب فى جميع الوجوه اهتمام مفاجىء مشـوب بالغيـظ ، وأحسوا أنهم على موعد مع احدى سخافاته ولكنهم جميعا كانوا ينظرون جهة الباب ، عدا « شاكر » الذى قال وهو يحاول أن يبدو غير مكترث :

– أظـن ان الريس هو الذى يهمـه أن يعرف لماذا تأخرت ؟

قال « حسن » دون أن يتحرك من مكانه :

– سأضطر بكل أسف أن أذكـر للريس سـببا غير حقيقى ، أما أنتم .. زمـلائى الأعـزاء .. فلا أرى مانعـا من أن تعرفوا الحقيقة !

لم يعلق أحد بكلمة .. كانوا رغم الهواء البارد الذى يهب من الباب المفتوح يواصلون النظر خلاله ، وقد تصلبت ملامحهم خشية أن يفوتهم شىء ، ومضـت لحظـات بطيئة قبل أن يروا « سلوى » زميلتهم فى العمل تعبر الصالة بخطوات مسرعة مضطربة فى اتجاه الحجرة التى تعمل فيها مع زميلاتها ولم يكد فستانهـا

الأخضر وخصلات شعرها الفاحم يختفيان عن عيونهم حتى دخل « حسن » وأغلق الباب خلفه وقال :

ـ وهكذا ترون أننى لســـت وحدى الذى يتأخر !

ومن جديد ... ساد الحجرة صمت ثقيل مشحون بدت خلاله جميع الوجوه وقد فقدت ملامحها الخاصة ، ولفها كلها استسلام ذليل صاغر ، وكأنها كلها تنتظر الكلمة التالية التى سيقولها «حسن» .. وجه واحد كان لايزال يقاوم توترت ملامحه لحظات ، واندفع صوت شاكر بعدها يمزق الصمت :

ـ ستزعـم انك كنت معها ، وأن هذا سـبب تأخرك ، ولكن الجميع يعرفون أن « سلوى » أشرف فتـاة فى المصـــلحة ، ولن يصدقك أحد ، اليس هذا ماتريد أن تقوله ؟؟

مرة أخرى ساد الصمت ، وقرأ شاكر فى عيون زملائه لوما غامضا على تسرعه ، وأحس فعلا أنه تسرع ، ربمـا لم يكن هذا ما يريد أن يقوله ! ولكن ها هو حسن قد صمت فلم يحر جوابا ، وهذا دليل على أنه ألجمه بهذا الرد السريع ، لا ينبغى أن يأسف على تسرعه ! ولكن صوت « حسن » يجىء بأسرع مما تتصور ، يجىء هادئا وباردا فى الوقت نفسه ، مصحوبا بنظرة أحس بهـا تثلج أطرافه .

ـ ياليت كان كلامـك صحيحا ! وقتها ما كنت لأهتم أبدا بأن أخبركم بشىء ، كنت آخذ اليوم كله اجازة حتى لا أفسد متعتى برؤية وجوهكم التى لا تسر .. !

وعاد الصمت المشحون يعبىء الحجرة .. ويطبق على جميع الشفاه ، حتى شفتا « شاكر » كانتا ترتجفان دون صوت .. وراحت

نظراته تحاول عبثا أن تلتمس العون فى وجوه الزملاء ٠٠ كانت كلها تلتقى عند شفتى « حسن » اللتين انطبقتا فى عناد مثير !

« عن أى شىء يمكن أن تنفرج هاتان الشفتان ؟؟ « سلوى » الرقيقة الحلوة ذات النظرات الصافية فى كبرياء ، التى تفتن الجميع بترفعها الودود المهذب ، الوحيدة التى لم يسمع عنها كلمة مبتذلة ، والتى فكر ذات صباح أن ٠٠٠ سلوى جاء دورها لـ ٠٠٠٠٠ سيغلق الى الأبد هاتين الشفتين لو ذكرتاها بسوء ! »

الشفتان لا تزالان مطبقتين ، والصمت لا يزال ٠٠ يشى باستمراره عن ذلك الانتظار الذليل الذى يسيل من العيون فى نظرات لا تريد حتى أن تطرف ٠٠٠ ! صوت « حسن » يأتى متشفيا مصاحبا لنظراته التى التحمت هذه المرة بنظرات « شاكر » فى تحد صامت :

ـ كنت مثلك أعتقد أنها أشرف فتاة فى المصلحة ، وكنت مثل الجميع هنا أحبها ٠٠ ربما لا تعرف أن الجميع هنا مفتونون بسلوى ٠٠ الجميع لا فرق بين متزوج وأعزب ، ولكنى كنت أختلف عنهم فى شىء واحد ٠ هو اننى حاولت ـ دون جدوى ـ أن ابدأ معها علاقة من أى نوع فلم أنجح ٠٠ ! وزادنى هذا تعلقا بها ٠٠٠ وظللت أعتقد فعلا أنها أشرف فتاة حتى صباح اليوم ، وبالتحديد حتى الساعة الثامنة الا عشر دقائق من ذلك الصباح ٠

وصمت « حسن » بينما راحت أصابعه تفتش فى جيوبه عن علبة سجائره ٠ فكر شاكر أن اللعين سوف يبدأ عمليته القذرة ، حاول أن يقوم من مكانه لينزع السيجارة من فمه ويطبق على شفتيه أو يصفعه على وجهه ، ولكنه لم يستطع حتى أن يحول عينيه عنه لحظة واحدة ! كان برغمه يريد أن يسمع ما يقوله ، بل كان لايطيق

ذلك الصمت الذى يعمد اليه « حسن » وهو يشعل احدى سجائره .. انه يعرف أنه يكذب ولكن لا مفر من أن يسمع أكاذيبه قبل أن يجعل منه حديث المصلحة كلها فى هذا اليوم .. على الأقل سيكون هناك مبرر لما يفعله به ! وقطع صوت « حسن » خواطره ..

ـ فى الساعة الثامنة الا عشر دقائق كان « الأتوبيس » الذى أركبه يقترب من ميدان التحرير حين لمحتها معه .. لم أصدق عينى .. ! توقف الأتوبيس أمام احدى الاشارات .. تأكدت منها بوضوح .. قفزت من الأتوبيس بعد أن تحرك .. كنت قريبا من الباب مما سهل مهمتى !

خطف شاكر نظره الى وجوه رفاقه .. لم تعد وجوها .. مختلفة .. كانت كلها وجها واحدا تطل منه نظرة واحدة ويرتسم على ملامحه تعبير واحد .. تعبير ذليل أخرس ارتعد .. لمرآه .. ترى هل أصبح له نفس الوجه ؟

.. بعض الكلمات تند عن أذنيه ... فلا يرى بدا من ان يتابع « حسن » ..

ـ سرت وراءهما من بعد مناسب حتى لا ترانى .. ولكن سرعان ما أدركت خطئى ، فقد لاحظت أنها لاتبصر فى الشارع كله أحدا غيره : عيناها مشدودتان اليه ... وبدا كما لو كان هو الذى يقتادها فى الشارع ، ذراعها تحت ابطه .. كتفها يلاصقه .. رأسها مرفوع دائما الى وجهه كأنها تراه فى كل لحظة لأول مرة ، والحقيقة أن ابن اللئيمة كان رائعا وسيما ذا قوام فارع وجسد رياضى مما جعلنى أنزع من رأسى فكرة احراجهما بأن أجعلها ترانى كما لو ان ذلك حدث مصادفة !

فى هذه اللحظة اكتشف « سمير » أن علبة سجائره قد فرغت فطلب سيجارة من حسن الذى رمى بها اليه واستمر فى حديثه ..

– دوخانى معهما فى السير .. كادت عربة أن تصـــدمنى حين أوشكا أن يختفيا عن عينى فجأة فى محل لبيع الحلوى ..

لم أستطع أن أدخل خلفهما .. انتظرت حتى تسمما .. !

فتح باب الحجرة وبرز وجه الفراش المغضن :

– يا أســتاذ حسن ! الريس يريدك الآن !

– طيب .. قالها حســن ثم التفت اليهم وهو يهم بالخروج قائلاً : « سأعود حالا لأكمل حديثى » .

خيم الصمت على الجميع بعد خروجه .. صمت ثقيل ذليل تعثرت فيه نظراتهم ، وبدا أن أحدا منهم لا يقوى على زحزحته .. ووجد شاكر نفسه يبذل مجهودا مضنيا ليعطى صـــوته شيئا من الحدة وهو يقول ..

– كذب وافتراء ..

مضت لحظات قبل أن تتحرك شفتا عوض بفتور هذه المرة :

– جائز أنــه ..

قاطعه شاكر :

– هل تشك لحظة فى كذبه ؟

هرش سمير رأسه وهو يقول : – جائز أنه خطيبها !

قال رءوف : – سلوى لا تلبس دبله ...

وأضاف « شاكر » وقد هدأت حدة صوته قليلا :

– لو كانت مخطوبة لعرف الجميع ذلك ، فهذه أمور لايخفيها الناس !

قال عوض وكأنه يكمل جملته السابقة :

ـ جائز أنه صديقها !

رد سمير كالمسوع :

ـ لا ليست سلوى من هذا النوع !

قال عوض :

ـ وماذا نعرف عن سلوى حتى نتحمس لها أو عليها ؟

صرخ شاكر :

ـ أيها الحمقى كدتم تصدقونه !

ـ ولماذا تنفعل هكذا ؟ قالها عوض بهدوء ...

ـ سأعرف كيف أجعله يكف عن هذا !

قال رءوف : ـ تريد أن تساهم فى فضيحتها بتهورك .

ـ سيفعل هو ذلك من نفسه !

تدخل عوض ليهدىء الموقف قال :

ـ لم يكمل « حسن » حديثه بعد ، وربما جاء فى حديثه ما يجعل الأمر أكثر وضـــوحا ... ربما ذكر ما يجعلنا نقطـــع بصدقه !

وأكمل سمير :

ـ أو بكذبه !

تمتم رءوف : ـ كل شىء جائز ، ليس أمـامنا ســـوى أن ننتظر .. !

مرة أخرى عاد الصمت بينما ظل رأس شاكر يغلى .

« ماذا يمكن أن يقول ؟ لن يغير ذلك من حقيقة الموقف شيئا ، البلهاء ! أوشكوا أن يصدقوه ! ويجلسون الآن فى صمت حتى يعود ليواصل أكاذيبه .. ! كيف يحدث هذا كله ؟ انه أيضا لم يفعل شيئا سوى أنه ينتظر مثلهم .. كأنه يريد أن يعرف ماذا حدث بعد أن خرجا من محل الحلوى ! من المؤكد انهما لم يدخلا محلا على الاطلاق ، وربما لم يكن هناك وجود لهذا الفتى الرياضى الوسيم ، كاد هو الآخر يصـــدقه ، لـم يعد يدرى ماذا يصدق أو يكذب ! لماذا لم تدهمه العربة التى كان يتحدث عنها ؟ الملعون يتحدث كأن كـل شىء قد وقع فعلا !! لو أن شخصا آخر روى هذه القصة لكان من الجائز أن يصدقه ، فليس بعيدا أن تعرف فتاة مثل « سلوى » فتى رياضيا وســـيما ، وأن تحبه وأن تلتقى به ... ولكن حين يروى هذه القصة وغد مثله فهذا وحده يكفى دليلا على كذبها .. !

– لماذا تأخر كل هذا الوقت عند الريس ؟

لم ينتبه « شاكر » الى هذا السؤال الذى قطع به « سمير » الصمت المخيم للحظة !

كان لا يزال يفكر « أيمكن ان يتسبب حقا فى فضيحتها لو أنه ضرب « حسن » ؟ ربما فهم الجميع أنه لم يفعل ذلك الا لأنه يحبها لا ينبغى أن يعرف أحد حقيقة شعوره نحوهـــا قبل أن يتأكـد من موقفها منه !! مرات قليلة تحادث معها حول أشياء تتعلق بالعمل ... كانت تبتسم دائما فى رقة ووداعة ، وتطرف أهدابها فى خجل ولكن هذا شأنها مع الجميع ، وربما لهذا السبب يحبها الجميع هنا ... و .. »

وحانت منه التفاتة الى وجه « سمير » ... كان يبدو حزينا شاردا هو الآخر خلف سحب الدخان التى ينفثها بعصبية ... وكان

يبدو فاتنا أيضا ، هل يخفى هو الآخر حبها ؟ ولكن لـــماذا ؟ لو كشف لها عن عواطفه لما ترددت فى حبه فهو أكثرهم رقة ووسامة ! ربما كانت صحيحة تلك الأكذوبة الحقيرة عن هذا الفتى الرياضى الوسيم ، ربما كان صحيحا كل ما ذكره « حسن » فالمرأة لا ترفض الحب الا حين تكون غارقة فيه ، ووجد نفسه يحاول عبثا أن يرسم فى رأسه صورة لذلك الفتى الرياضى فجاءت على الفور – ودون أن يدرى لم – صورة سمير فى رأسه · ماذا جرى له ؟ مستحيل أنها تحب سمير ! لم يحدث له ما يشير الى شىء كهذا !! لو كان يحبها لما سمح لحسن بأن يستمر فى حديثه ! ولكن أليس هذا مافعله أيضا ؟ هل فعلا معا غير هذا الصمت الذليل المنتظر ؟ وعاد ينظر الى « سمير » بشفقة هذه المرة ؟ ترى ماذا يدور فى رأسه ؟ هل يمكن أن يتكاشفا للحظة واحدة ؟ هل يمكن ان يقفا معا ضد هذا الشيطان ؟ كيف استطاع أن يبقيهم جميعا هكذا بحيث لا يستطيع شخص منهم أن يقترب من الآخر أو يبتعد عنه ، ماذا يفعل اذن ؟ هل يبقى جالسا فى انتظار أن يأتى ليواصل أكاذيبه ؟ هل ينتظر مثلهم لعله يجد فى كلامه ما يجعله يقطع بشىء فى هذا الموضوع ؟ هل أصبح مثلهم يعتقد أنه يمكن ان يقول شيئا حقيقيا أحيانا ؟

وبرق فى ذهنه خاطر بدا له معقولا ، لماذا لايخبر الرئيس بكل ماحدث ليتصرف هو بحكمة ودون ضجة ؟ وحتى لا يصبح هو فى وضع يثير الرثاء لو أنها كانت تحب حقا هذا الفتى الرياضى الوسيم ؟ !

لماذا لا يذهب الآن و « حسن » هناك ليقول ذلك أمامه حتى لا يظن أنه يتقول عليه ، وسيشهد معه رءوف وسمير وعوض ، هل يخبرهم بفكرته ؟ لا ، ينبغى أن يتصرف بحكمة وبسرعة ، ربما لا يوافقونه · اختلس نظرة خاطفة الى وجوههم : كانت لا تزال متبلدة تطل من عيونهم تلك النظرات الغريبة التى تؤكد أنهم لا يمكن

أن يوافقوا على شيء يحول بينهم وبين الاستماع الى بقية القصة ·· حمل فى يده أحد الملفات الموضوعة أمامه حتى يظنوه خارجا لأمر يتعلق بالعمل ·· لم يتوقف لحظة حين سألوه الى أين ؟

كان باب حجرة الرئيس مواربا ·· اجتاز « شاكر » الممر الضيق الموصل لمكتبه ، سيجد « حسن » يروى له أكذوبة أخرى عن سبب تأخره ·· ستكون آخر أكذوبة هنا ·· وسمع صوت «حسن» : كان يتكلم بطريقته الهادئة الواثقة ··· لم يشعرا بدخوله حين وقف مترددا ، كان « حسن » يروى نفس القصة وقد صنع بجسده حاجزا بينه وبين الرئيس الذى بدا مستغرقا فى سماع القصة ، عيناه ترسلان نفس النظرة التى لا تطرف ، والتى تشى بتلك الرغبة الغامضة التى تركها منذ لحظات تحرق عيون الزملاء ، وفمه نصف مفتوح ويده تمسك بسيجارة تحترق وحدها دون أن يقربها من شفتيه ، وصوت حسن يرتفع بهذه الكلمات :

« ظلت تسير معه الى أن أوصلته الى مبنى وزارة « ···· » فى شارع القصر العينى ·· تصور أنها وقفت حتى غاب من عينيها داخل المبنى الكبير ، وفى آخر لحظة ، وقبل أن يختفى تماما استدار ليجدها لاتزال واقفة ولم تخجل بنت الـ ··· من أن تلوح له بيدها كأنها تودعه على رصيف ميناء · »

أحس شاكر بحرج بالغ حين لم ينتبها لوجوده ، لم ينطق بكلمة واحدة ، وجد نفسه دون أن يدرى يواصل الاستماع الى « حسن » فكر أن فى القصة جزءا ناقصا ··

خاف أن يتسلل خارجا فيشعرا به ، تنبها فجأة لوجوده حين انتهى حسن من حديثه ، تغير وجـــه الرئيس فجأة ، استعاد فى لحظة صرامته التى لم تمنع حمرة الخجل من أن تتســـرب اليه لحظات أمكنه بعدها من أن يسيطر على نفسه وعلى الموقف ٠ وقال لشاكر بغضب :

ـ يا أســتاذ للحجرة باب ، كان يجب أن تطرقه ٠٠ !

ثم استدار لحسن وقال بنفس اللهجة :

ـ كل ما ذكرتــه لا يهمنى فى شىء ، ولن أقبل مثـــل هذه الاعتذارات مرة أخرى ٠٠ أتفهم ٠٠ والآن تفضلا ٠٠ !

***

فى الحجرة كان شاكر قد أراح رأسه بين كفيه ، وهدأ قليلا حين عاد « حسن » ليكمل القصة ، دون أن يشير بكلمة واحدة الى ما حدث فى حجرة الرئيس ، وكان الزملاء قد عادوا يتابعون القصة فى صمت ، وتطوع « عوض » ليذكره بالنقطة التى انتهى عندها حديثه ٠٠ وجد شاكر نفسه يواصل الاستماع الى القصة ، دون أن يرفع رأسه عن راحتيه ، فكر أنه لـم يسمع القصة كاملة ، ربما ذكر شيئا يجعل الأمر أكثر وضوحا ٠٠٠ لو كان فى هذه القصة جزء صغير حقيقى ٠٠ لضاقت سلوى بتدخله أكثر من ضيقها بمـا يقوله عنها « حسن » ٠٠ كيف يستطيع شخص أن يعرف الحقيقة ؟ كيف ؟ أحيانا تند عن أذنيه كلمات حسن ٠٠ ينبغى أن يســـمع ، يسمع فقط ٠ ولم يطق أن يرفع رأسه عن راحتيه ، حتى لا يرى

تلك النظرة الغريبة التى تطل من عيون الزملاء ·· وحتى لا يروا مثلها فى عينيه ! مرة واحدة رفع للحظات ·· رفعها تجاه الباب المغلق وخيل اليه هذه المرة أنه يسمع فى الحجرة صوتا آخر غير صوت حسن ·· صوتا غريبا ورتيبا ·· كان يسمعه بوضوح فى اللحظات التى يصمت فيها حسن ، وتبين مصدر الصوت حين لمح خيوط العنكبوت فى الفراغ القائم خلف الباب تهتز ، كانت هناك حشرة ضخمة تحاول عبثا أن تتخلص من الخيوط الرقيقة اللزجة التى لا تكاد ترى ، ولكنها فى كل محاولة كانت تزداد التصاقا بها ، وتزداد ضعفا ، وشيئا فشيئا خفت الصوت ·· صوت الحشرة ، كأنما أضناها الصراع ، وأمكنه أن يلمح من مكانه العنكبوت وهو يتسلل من مكمنه ضعيفا واهنا قويا لايكاد يظهر ·· يتسلل الى الحشرة التى كفت عن أن تقاوم واستسلمت لمصيرها المحتوم ··

الصـــمت

حتى هذه اللحظة لا أدرى كيف حدث ذلك ! كيف ارتفعت يدى لتهوى على وجه « سعدية » فى صفعة حانقة وأنا أصرخ :

ـ ألا تكفين لحظة عن هذا الضحك ؟

ما زلت أذكر هذا الوجه ، وجها فى الثانية عشرة من العمر ، يميل الى السمرة يغطى نصف جبهته منديل ريفى أزرق ، وتتألق فيه عينان باسمتان دائما ، وفى لحظة انطفأت ملامح الوجـــه ، وتحجرت فى العينين الباسمتين نظرة حانقة مذعورة ، لم أقو على مواصلة النظر اليها ، فدخلت حجرتى لأواصل العمل الذى قطعته لأجعل هذه البنت تكف عن هذا الضحك الذى لا معنى له ٠ !

لم تكن تلك أول مرة أطلب فيها من « سعدية » أن تكف عن هذه العادة السخيفة ، فمنذ أتى بها أبوها من القرية ، لتســاعد زوجتى فى أعمال البيت ، وصوت هذه الضحكة الرفيعة المتقطعة

يتردد فى أنحاء الشقة ، سواء أكان هناك ما يدعو للضحك أم لا . يكفى أن تقول سعدية أى كلام ، ولو كان مجرد رد على سؤال عابر ، حتى تختمه بهذه الضحكة . فى البداية لم نكترث بهذه العادة بل كنا نتسلى بها ، فالبنت فى الحقيقة ذكية ، وعذبة الروح ، وتؤدى ما يطلب منها فى مهارة ، وأكثر من ذلك لم نعثر عليها الا بعد مفاوضات عسيرة ، شارك فيها جميع أقاربى فى القرية ، وتوصيات أبيها لا تزال ترن فى آذاننا ، وهو يشد بأطراف أصـــابعه أطراف الطاقية الصوف على رأسه ..

« لولا خاطركم ، ولولا ثقتى فى حسن معاملتكم ، ما فرطت فى ابنتى الوحيدة ، اننى أتركها أمانة هنا .. ويعلـــم الله أننى ما مددت يدى عليها ابدا » .

وفى الحقيقة ان عثورنا عليها ، كان أشبه بالعثور على كنز ، ولكن أعجب ما كان يضمه هذا الكنز البشرى – وهذا ما اكتشفناه بعد أسابيع – هو تلك الثـــروة الغريبة من الحكايات ، التى تجيد حكايتها .. وتمثيلها . وكانت ابنتى التى لم تتجـــاوز عامهـا الرابع هى المستمع الوحيد لهذه الحكايـات ... القـــادمة من القرية .. ولم تكد « سعدية » تســـتمع الى الراديو حتى تنوعت حكاياتها وتطورت ، وظهرت قدرتها الفائقة على تقليد أصـوات الممثلين ، وأصبحت ابنتى لا تستمتع « ببرامـج » الراديو الا بعد أن تقلدها « سعدية » بطريقتهـــا ، تلك الطريقـــة التى كان من لوازمها أن تنتهى كل فقرة فيها بتلك الضحكة الرفيعة ... والتى أصبحت جزءا من شخصيتها بـل كادت تصـــبح جزءا من البيت ولا أدرى متى بدأنا نضيق بهذا الجزء ، ونشعر به كشىء زائـد وثقيل على حياتنا ... ربما بعد ان سمعت هذه الضحكة الرفيعة تنبعث من فم ابنتى ، وربما بعد أن وجدت ابنتى هى الأخرى تنافس

سعدية فى حكاية برامج الراديو ، وفى تقليد أصوات الممثلين ... ولم أتردد فى تنبيه « سعدية » الى ان تكف عن هذا الضحك بلا مناسبة .. كان الضحك وحده هو الشىء الذى يمكن ان أعارضه ... وتبقى معارضتى معقولة نوعا ... ولكن تنبيهاتى كلها ذهبت دون جدوى .. فقد كانت ضحكاتها لا تنفصل أبدا عن حكاياتها ، ولم يكن هناك مفر من أن تكف عن الحديث والضحك معا ... اذا أصرت على ذلك !!

وحاولت أن أتناسى الموضوع ، ولكنى كنت أستيقظ أحيانا من النوم أو أتنبه وانا غارق فى الكتابة والقراءة على صوت الضحكة الرفيعة المتقطعة ، فأحس بها تشد أعصابى كأنها صوت مياه تسيل من صنبور تالف دون انقطاع . !

وحين تناهى الى أذنى صوت ضحكتها هذا اليوم ، وكنت غارقا فى عمل يحتاج الى هدوء كامل ، لم أستطع ان أمنع نفسى من هذا التصرف الذى لم أتصور يوما أن أقدم عليه ..

ومع ذلك فقد رحت بلا شعور أرقب نتيجة هذا التصرف ... لقد مضت ساعات ثم مضى يوم كامل دون أن أسمع الضحكة الرفيعة تنطلق فى ارجاء الشقة ... بل دون ان أسمع لسعدية صوتا على الاطلاق ، وفى الحقيقة اننى كنت أعتقد ان حالة الهدوء هذه لا يمكن ان تستمر طويلا ، فمن الصعب ان يتخلى شخص ناضج ، وليس مجرد طفلة ، عن عادة قوية كالضحك او الثرثرة ... كنت أتوقع بين وقت وآخر ان ترتفع ضحكة سعدية لتبدد هذا الهدوء الذى كنت أحلم به ، وان تعود لوجهها ملامحه السعيدة المرحة ، ولكن الوجه بقى على حاله ، تحول الذعر فى الملامح الطفلة الى جمود ، وتصلبت الشفتان الصغيرتان عن اى حديث سوى هذا الحديث

العابر الذى يحتاجه عملها فى البيت ، وكانت ملامحها الجامدة ، تشى بحزن دفين يلمع أحيانا لمعة احتجاج فى نظراتها ، ثم ينكسر هذا الاحتجاج الصامت مع أهدابها التى تطرف كلما التقت عيناى بعينيها فى نظرة عابرة ٠

ومضى يومان وثلاثة وأربعة دون ان تتردد الضحكة الرفيعة فى الشقة ودون ان يرتفع لسعدية صوت ، والعجيب أننى لم أسترح لهذه النتيجة ٠ فلم يكن ما أريده ان تصمت هذه اللعينة هكذا كأنها فقدت النطق ٠٠ ! كنت أريدها ان تضحك كما يضحك جميع الناس وكما يتكلمون حين تكون هناك مناسبة ٠٠٠ أما هذا الصمت المطبق فانه لا يقل اثارة للأعصاب عن ضحكتها الرفيعة ٠٠ المتقطعة !

ومع الأيام بدأت ألاحظ شيئا غريبا : كان صمت سعدية يتسلل الى وجه ابنتى هى الأخرى ، ويضفى على ملامحها الصغيرة احساسا مضنيا بالكآبة والوحدة ٠٠٠ وأحيانا كانت تأتى الى وفى عينيها توسل حزين بأن أحكى لها الحكايات التى كانت تقصها « سعدية » ٠٠٠ وفى كل مرة كنت أخبرها بأن سعدية هى التى ستفعل ذلك ، ولكن سعدية لم تفعل شيئا آخر غير الصمت ٠٠

ولأول مرة بدا صمت الفتاة يقلقنى ٠٠ ويفرض نفسه على أوقات فراغى بل ويتسلل الى أوقات العمل ٠ كنت أجد نفسى مرغما على التفكير فيه ، مستحيل أن يكون الخوف هو ما يدفعها الى هذا الصمت ، فقد حاولت أن أزيل من نفسها أثر هذه الصفعة ، ففى كل مرة خرجت معى لشراء شىء للبيت كنت أعطيها قرشا لتشترى لنفسها ماتحبه ، فكانت تتردد فى البداية ثم تأخذ القرش لتضعه فى جيبها دون كلمة ٠٠ !

كما أنها أصغر سنا من أن يكون صمتها هذا مقصودا ، فمن المستحيل أن تدرك أن صمتها قد بدأ يعذبنى الى هذا الحد ... وأن يكون هذا ما تريده .. !

لقد وجدت نفسى ـ وجها لوجه ـ أمام هذا السؤال ..

« هل تنوى سعدية أن تظل صامتة الى الأبد ؟ واذا كان ذلك مستحيلا تماما فماذا تنتظر تلك اللعينة .. ؟ أجل ماذا تنتظر ؟ أين يمكن أن يختفى فجأة هذا العالم الغريب من الحكايـــات والثرثرة والمرح ؟ كيف تحتمل هى هذا الصـــمت اذا كنت أنا أعجـــز عن احتماله ؟ »

وكدت أسأل زوجتى .. كيف تبدو سعدية بقيـــة اليوم حين لا أكون فى البيت ولكنى لم أفعل ، فقد كنت ألاحظ أن زوجتى لا تعير الموضوع كله أقل اهتمام ، وأنه لا يدهشها صمت ســـعدية بل ربما أدهشها اهتمامى بهذا الصمت .. !

وفكرت أنه ربما كان سلوك زوجتى هو الســـلوك الطبيعى وأننى ـ على حد تعبيرها ـ أفسد الأمور بحساسيتى الزائدة .. !

وحاولت جاهدا أن أنسى الموضوع كله ، وأكثر من ذلك أن أجعل ابنتى تنساه أيضا ، فكنت أفتش فى رأسى عما تبقى فيه من حكايات الطفولة لأقصها عليها كلما طلبت منى ذلك ، ولكن ابنتى الصغيرة لم تكن تعجبها حكاياتى ولا الطريقة التى أحكيها بها .. كنت ألمح فى عينيها الصافيتين بوادر الضجر ، وخاصة حين أقف فجأة فى منتصف الحكاية لأتذكر أو أؤلف بقيتهـــا ، ثم تقاطعنى بيديها الصغيرتين لتقول لى :

« لا يا بابا ... الحكايات مش كده » .

ثم تبدأ هى فى سرد حكايات سعدية بنفس طريقتها وكأنها تحاول أن تدربنى على ذلك لأعيد عليهـــا نفس الحكـــايات بنفس الطريقة .. ولكن عجزى عن تقليد « سعدية » لم يكن أكثر منـه سوى عجزى عن تجاهل صمتها .. لقد أصبحت سعدية تبدو أمام عينى كلغز محير ..

وأصبح كل ما يهمنى أن أعرف كيـف تفكـــر فى الموقف ؟ وما إحساسها به ؟ لم يعد ما أشعر به هو الأسف أو حتى الشـفقة .. كان كل ما يدفعنى هو الرغبة فى أن أفهم .. كيف أمكـن أن يحدث هذا ، أن تعيش بيننا سعدية هكذا كعالم مغلق ينطوى على أسراره وحكاياته ومرحه ، عالم غريب وحيد لا يرتبط بأحد أو بشىء ثم لا ينفجر ولا يتحطم . وفكرت أننى لو حاولت أن اقترب أكثر من هذا العالم .. أن أقترب بوسيلة غير القروش التى كنت أضعها فى جيبها دون كلمة .. ربما فهمت مايدور داخل هذا الكيان الدقيق الصامت !

ولأول مرة أحسست أن الحديث مع سعدية ... الحديث الذى أريد أن أنفذ منه الى عالمها المغلق لن يكون سهلا أبدا ، لقد اكتشفت فى هذه اللحظة فقط ، أنه منذ جاءت سعدية الى بيتنا لم أتبادل معها أى حديث .. أجل فمنذ جاءت وأحاديثى معها لا تخرج أبدا عن هذا الاطار :

« سعدية أحضرى قدحا من القهوة » .

« سعدية أريد علبة سجائر » .

« سعدية نظفى الحذاء » .

وتصبح سعدية امتدادا لى ·· مجرد امتداد ، فعن طريقها تتحقق جميع رغباتى ··· حتى كلماتها لاتخرج أبدا عن كونها صدى لما أقول أو أطلب · أما صوتها هى ··· صوت هذا العالم المغلق فلم يصل يوما الى أذنى · لم يدر بيننا أبدا حوار حقيقى ··· الحوار الحقيقى كان يدور بينها وبين ابنتى ، وفى لحظة رعناء امتدت يدى لتقطع هذا الحوار ·

ومع ذلك فقد كنت مصمما على أن أبدأ مع سـعدية حوارا حقيقيا · كان كل ما أنتظره هو الوقت المناسب ، حتى لا تفشـل المحاولة ، وخيل الى أن الوقت الملائم قد حان فى ذلك اليوم الذى خرجت فيه زوجتى مع ابنتى الصغيرة فى زيارة لاحدى صديقاتها ، ولم أحاول أن أضيع الوقت ، ومع أننى لم أرتب فى ذهنى الكلمات التى يمكن أن أبدأ بها هذا الحوار فقد وجدتنى أنادى سعدية وأنا فى حجرة المكتب ·· لن أعدم وسيلة أنفذ بها الى قلب سعدية ··

وكررت النداء ولكن سعدية لم تحضر ولم ترد ··

خرجت من حجرتى أفتش عن سعدية فى الصالة وفى المطبخ ، فلم أعثر لها على أثر ، أين اختفت هذه الملعونة ؟ ، كانت تقف فى الصالة حين خرجت زوجتى وفجأة خيل الى أننى أسـمع صوتها صوت الضحكة الرفيعة المتقطعة ، وتتبعت الصوت الذى كان يأتى من بعيد ··· واكتشفت أن باب المطبخ المؤدى الى سلم العمارة الخلفى موارب ، دنوت من البـاب فى خطـوات هادئة ، لمحت من مكانى « سعدية » تجلس على قاعدة السلم لباب المطبخ مع زميلتها التى تعمل فى الشقة التى تقع تحتنا مباشرة ··

لم تكن أبدا سعدية التى عذبتنى ملامحها المذعورة الجامدة ·· كانت تثرثر وتمثل برأسها وملامحها ونبرات صوتها الدور الذى

تحكيه ، وتنهى كل جزء بضحكتها ، ظللت لحظات مسمرا فى مكانى لا أدرى ماذا أفعل ٠ كان وجه سعدية يتألق مرحا وسعادة ووجه صديقتها يتابعها فى انبهار ٠ كيف يمكن أن يصبح هذا الوجه حين تكتشف وجودى ؟؟ سوف يتلاشى فى لحظة هذا العالم المرح لو فتحت فمى بكلمة واحدة ، كيف يمكن أن تفهم هذه اللعينة أننى لا أريدها أن تكف عن هذه الثرثرة ؟ يجب أن تفهم ولكن كيف ، وشعرت للحظات أننى غريب حقا على عالم هاتين الفتاتين ، وأنه من الخير لى أن أنصرف فى صمت ، مادمت فهمت سر « سعدية » المستغلق ، ولكن عينى خادمة الجيران لمحتانى قبل أن أنصرف ، وظهر على وجهها ما جعل سعدية تلتفت خلفها لتراني ٠٠٠

وفى تلك اللحظة التى التقت فيها نظراتنا حـاولت عبثا ان أفتش فى رأسى عن كلمة واحدة ٠٠ أنفذ بها الموقف ٠٠٠ أرد بها عن ملامح سعدية ذلك الخوف الأصم الذى كسا وجهها فجأة ٠٠٠ أبدأ بها هذا الحوار الذى كنت أريده ٠٠٠ ولم أجد الكلمة ٠٠٠ ولكن يبدو ان كل ما كنت أريد أن أقول ، وكل ما أحسست به ، كان يرتسم على ملامحى بأقوى مما كان لـو أصـبح مجـرد كلمات ٠٠ لقد أحسست بذلك فى لحظة غريبة ٠٠٠ فى لحظة شـعرت خلالها أن حوارا صامتا يدور بين نظراتنا ، بين خوفها وخجلـى ٠٠ بين ملامح وجهينا ٠٠ لم أتصور قبل هذه اللحظة أنه من الممكن أن يتفاهم مخلوقان بشريان بهذا اليسر ٠٠٠وخيل الى أنها تحس مثلى بما فى هذا الموقف من فكاهة ، فحين تحولت ابتسامتى الراجية الى ضحكة من الموقف ، كانت سعدية هى الأخرى تضحك ، وحتى اليوم لاتزال ضحكة سعدية الرفيعة المتقطعة تتردد فى أنحاء شقتنا دون أن تجد من أحد أدنى معارضة ٠

ذراعـــان

تباعا كانت الأضواء الهادئة تختفى فى حديقة سينما «الكرنك» وهبت نسمات رقيقة اهتزت لها الأشجار التى تصنع سورا أخضر حول الصالة يخفى وراءه السور الحجرى الحقيقى ، واهتزت تلك قامات الذين يبحثون عن مقاعد خالية صورة السفينة الضـــخمة المصابيح الملونة التى كانت ترسل ضوءا لا يتجاوز الممشى المجاور لها ، قبل أن يسود الظلام صالة العرض ٠

خف قليلا احساسى بحرارة الجو ، الجريدة المصورة تطوف حول خلجان العالم وتصف كيف يصيدون الأسماك ، بينما تحجب قامات الذين يبحثون عن مقاعد خالية صـــورة السفينة الضخمة التى يركبها الصيادون ٠ المقاعد حولى لا تزال خالية ولن يمر وقت طويل حتى تمتلىء ، وأحرم من تلك الجلسة التى أمد فيها قدمـــى وذراعى بحثا عن نسمة عابرة ٠ قائد السفينة يشبه كثيرا أستاذ التاريخ الذى دفعتنى محاضـــراته الى هذا المكان ، بعد أن ظللت أستذكرها طوال النهار ، أستاذ التاريخ يختفى ، والرحلة حـــول

العالم تمتد ، والمقاعد تمتلىء ، وبجوارى تجلس فتاة كانت تتقدم الأسرة الصغيرة التى احتلت المقاعد الأربعة عن يمينى . كان من الضرورى أن أعتدل فى جلستى ، خاصة أننـــى أرتدى قميصـــا بنصف كم ، وجارتى تلبس فستانا بلا أكمام ، والمقاعد من النوع الذى يفصل بين كل مقعدين فيه مسند واحد ، لا يتســع الا لذراع واحدة أو ذراعين صديقين ..

كانت مجرد فتاة مجهولة ، وكان وجودها بجوارى .. مجرد وجودها يعتبر مصادفة طيبة ، لا ينبغى أن أغامر بفقدها ، ولهذا تعمدت ألا أتصرف بطريقة تجعل جارتى تفكر فى تغيير مقعدها ، وأسعدنى أن اللحظات قد مضت دون أن تصدر الجهات المسئولة والموجودة بجوار الفتاة أى تعديل فى الأوضاع ..

ومع أننى لم أحاول أن ألتفت ناحيـــة الفتاة خـــلال هذه اللحظات فقد كنت أحس بها تتسلل الى وجودى المتحفظ الرزين .

كان النسيم يحمل الى عطرها الهادىء ، وصوتها الذى يشى بعمرها فى هذا الظلام بأكثر مما تستطيع ملامحها ، كان واضحا أنها تحب مغامرات « توم وجيرى » التى بدا عرضها . كانت تضحك من قلبها ، وتضرب الأرض بقدميها فأبصر رغم تحفظى شـــعرها وساقيها ، وأحس بهذا التحفظ وهو يهتز مع كل حركة مرحة تصدر عنها . من المؤكد أنها فتاة بسيطة وطبيعية ، وأننى لم أكن أخشى سوى مخاوفى ، ومن الطبيعى أن أتصرف ببساطة .. على الأقل مثلها . وبدأت أمارس واحدا من حقوقى ... أبسط هذه الحقوق .. أشرت الى (الجرسون) الذى كان يمر قريبـــا منى ، وطلبت زجاجة « كوكاكولا » . كانت فرصة مشروعة لتتحرك ذراعى من المكان الذى حددت فيه اقامتها لتأخذ الزجاجة وترتفع بها الى فمى فى مرات عديدة بطيئة . وفى احدى المرات اصـــطدمت ذراعـــى

بذراعها ، فاكتشفت لحظتها فقط أن جارتى قد اعتبرت المسند الوحيد المشترك حقا خالصا لها فأسندت ذراعها اليه ، كيف لم ألاحظ هذا من قبل ؟ لم أكن قد مارست حق الالتفات اليها بشكل كامل ، وحين وقع ذلك الصدام الذى لم يستغرق سوى لحظة عـــابرة تركـزت حواسى كلها حول مكان الحادث ، فى انتظار قلق لرد الفعل · ومع اللحظات الحاسمة التى تلت ذلك الصدام تحول الانتظار القلـق الى شعور عميق بالراحة حين لم تستجب جارتى بما يعبر عن ضيقها بما حدث · كانت الذراع الرقيقة الناعمة لا تزال تحتل مكانها على المسند المشترك ، لا شك أنها فهمته كحادث عرضى لا يعنى شيئا ، لم أعد أشك فى أنها فتاة عاقلة ، وان ذراعها ـ وبالتحديد الجزء الذى لمسته منها ـ أرق وأنعم شىء لمسته فى حياتى · وبدأت أحس بذلك الجزء الآخر من ذراعى الذى تلقى هذا الاحساس ، كشىء مغاير لى تماما ، شىء ينتمى الى ذلك الكيان الرقيق الناعم الذى يجلس بجوارى ويشيع من حوله جوا من البهجة والسعادة لا يستطيع كائن بشرى أن يقاومه · ولم أستطع أن أقاوم رغبتى فى الالتفات اليهـا التفاتا كاملا هذه المرة يستطلع ذلك العالم الذى غمرنى ســـحره لا شك أن هذا واحد من حقوقى أيضا ·

وفوجئت بها مشدودة الى الشاشة ، لا تكاد تحس بى ، مما ضايقنى لأول وهلة ، ولكنه أتاح لى أن أكتشف شيئا مهما جدا ، كانت ذراعها لا تحتل من المسند المشترك سوى نصفه الخلفى ، فقد كانت تستند اليه بكوعها فقط ، بينما بقى النصف الأمامى خاليا ، ومن الممكن لو تقدمت قليلا فى مقعدى أن أستند اليه دون أن يلتصق ذراعانا وحتى لو حدث ذلك فسيكون محض مصادفة ·· ربما لـــم تعرها أدنى اهتمام كسابقتها ، لماذا تبدو اللعينة كأنها لا تحس بى؟ بينما يعذبنى الخوف من ازعاجها ، سأمارس كل حقوقى حتى لـو أغضبتها ، فهذا أفضل ألف مرة من أن تبقى هكذا غير شاعرة بى ·

واستندت بمرفقى على الجزء الأمامى من المسند مطمئنا الى أن ثمة حاجزا من الفراغ يفصل بين ذراعينا ٠ !

« توم وجيرى » يواصلان مغامراتهما على الشاشة فيثيران فى الصالة عاصفة من المرح ، تنساب مع نسمات الصيف التى تخرج بين العطور والضحكات والأصوات التى تفقد ملامحهـــا فى هذا الظلام المرقيق ٠

وذات لحظة أحسست أن حاجز الفراغ الذى كنت أستند اليه قد تلاشى تماما ، وربما كانت عاصفة الضحك هى المســـئولة عن ذلك ، كانت الذراع الناعمة قد مست ذراعى فى رفق ، وأشاعت فى كيانى كله يقظة مفاجئة ، ولم يلبث حاجز الفراغ أن عاد يفصل بين ذراعينا ، ولكنه هذه المرة كان رقيقا جدا يتلاشى مع كل عاصـــفة مرحة يهتز لها جسد جارتى الذى أحسست به قريبا منى ٠٠

حتى هذه اللحظة لم أحاول ان أختلس من جارتى أى نظرة ، كنت أجلس فى مقدمة مقعدى ، وكانت تجلس فى مؤخرة مقعدها ، وكانت أية نظرة تحتاج الى أن أدير رأسى الى الوراء بشكل قد يلفت نظر الجهات المسئولة ٠ والواقع أننى شعرت أن علاقتنا قد انحصرت فى هذا الحاجز من الفراغ الذى أصبح يربط بين ذراعينا أكثر مما يفصل بينهما ٠

كيف فكرت أن جارتى يمكن أن تضيق بشىء كهذا ؟ صـــحيح انها حريصة على ألا تستمر لحظة اللقاء تلك ، وألا تخرج عن كونها شيئا يقع دون قصد ، وأنها دائما تسحب ذراعها الى الوراء قليلا فى كل مرة تحدث ، ولكن من المؤكد أنها ليست حريصة على ألا تحدث ٠٠٠ فبمقدورها أن تسحب ذراعها من على المســند لو أن ذلك كان يضايقها ٠٠

مغامرات « توم وجيرى » توشك أن تنتهى وعواصف المرح تهدأ ولحظات اللقاء بين الذراعين تتباعد ، وحاجز الفراغ يستعيد صلابته ولكن ... ولكن اللحظة الأخيرة من هذا اللقـــاء تبطىء ، وتفقـد معناها كلحظة .. وتيار عميق وهادىء من النشوة يتسلل الى كيانى كله عبر ذلك الجزء من ذراعى التى تلتصق بعضدها ، وأصبحنا فى تلك اللحظة الممتدة صديقين ..

لست أشك فى أنها تحس بى فى تلك اللحظة اكثر مما كانت تحس بأمها التى لا تكف عن الثرثرة معها ..

لا ، لم أكن فى حاجة الى أن أنظر اليها ، ولا حتى أبادلهـا الحديث ، فهناك تفاهم عميق يوشك أن يتم بين ذراعينا ، وحتى حين بدأت تسحب ذراعها من على المسند المشترك ، مع أول ضوء لمـــع فى الصالة ، كان هذا السلوك جزءا رائعا من الحوار الصامت الذى بدأ بل كان أكثر الأجزاء روعة ، وكان ردى عليها أننى سحبت ذراعى أنا الآخر حتى لا ترى الأم بين مقعدينا سوع الفراغ ، ولم يكن لهذا كله من معنى سوى أننا قد اهتدينا الى الكلمات الأولى فى لغة بسيطة وعميقة لن يفهمها أحد سوانا فى هذا المكان .

***

مع أننى أنتظر بصبر نافد لحظة الضوء هذه لأرى كيف تبدو جارتى ، فاننى لم أتعجل النظر اليها ، كنت مستريحا لهذا التفاهـم الذى تم بين ذراعينا دون كلمة أو حتى نظرة ، وكنت أحس أن الضوء قد يزيدنا تفاهما ، وأيضا قد يلغى ماوصلنا اليه ، كما كنت أخشى أية نزوة قد تؤدى الى تغيير الأماكن فى فترة الاســـتراحة ، ولكن جارتى أعفتنى من محاولة التعقل هذه ، حين وقفت ، ودارت برأسها فى جميع الجهات تبحث عن بائع المثلجات ثم تشير اليه ، وتنحنى

على أمها ، وتضحك ، وتعابث أخاها الصغير وهى تناوله زجاجة الليمون ، وخلال ذلك كله لم أكن أشك فى انها تفحصتنى ، وبطريقة عجزت أنا نفسى عن ضبطها مرة واحدة ٠

وفى الحقيقة انها بدت فى الضوء رائعة جدا ، حتى لقد حسدت نفسى لأننى كنت منذ لحظات صديقا لهذه الفتاة الرائعة ، وأن ذراعها كانت تلتصق بذراعى ٠ لا أظنها أتمت العشرين ربيعا ، عيناها سوداوان تظللهما أهداب ثقيلة دون أية زينة ، شعرها قصير ناعم تحركه أقل اهتزازه من رأسها الذى لا يكف عن الحركة ، فتبدو فى كل لحظة فى صورة جديدة وجميلة معا ، فستانها غامق الزرقة يفضح بشكل حاد بشرتها الناصعة ، وينم من خلال فتحاته عن جسد بديع ، يعبر فى كل حركة عن ضيقه بما يحيط به من قيود حريرية ناعمة ٠

لم أشعر بالراحة الا بعد أن عاودت الجلوس فى المكان نفسه وبدأ العرض ٠

كنت اعتبر مجرد بقائها فى المكان نفسه نوعا من النجاح ، ورحت أتابع العرض فى هدوء لم يقلقه اكتشافى ان المسند المشترك بيننا لا يزال خاليا ، كنت أعتقد ان هذا نوع من المناورة ليس غير ، وأنه يجب ألا تسبق ذراعى ذراعها الى المسند ٠

« – تبدين خائفة كأن الرجال نوع غريب من المخلوقات ٠

– هذه أول مرة أجد نفسى مع شخص مثلك ، كنت مع أبوى فى منطقة صحراوية لاستخراج البترول ، وهذه أول مرة أركب فيها سفينة وأتحدث الى شاب غريب ٠

– اذن فأنا أول شاب يسعده الحظ برؤية هذا الجمال ؟

– لست أدرى كيف ينبغى أن اتصرف ، ولا ماذا أقول ؟

ـ أجمل شىء ألا يعرف الانسان ماذا ينبغى ان يفعل ! بل ان يفعل فقط ما يحب ٠

ـ أحب ان اراك ٠٠٠ وان ٠٠٠

ـ هنا كل ليلة سأنتظرك على ظهر السفينة ٠

ـ دون أن أخبر أبوى ؟

ـ لا ٠٠٠ سآتى معك الآن لنخبرهما معا ٠ »

المسند بيننا لا يزال خاليا ٠٠٠ ربما شغفها الحوار بين البطل والبطلة فنسيت وجودى ، وربما لم تكن هناك مناورة ، ولـــم يكن الحوار بين ذراعينا سوى حديث نفس واهمة ٠٠٠ بينما جارتـى لا تحس بى ٠

« جون ومارى » يلتقيان كل ليلة على ظهر السفينة ، ويكشفان روعة البحر والليل والحب والحياة بينما يتحول المسند بيننا الى مجرد حاجز خشبى وموجة سخط هائلة تحمل ذراعى الى المسـند الخالى ٠ واذا كانت جارتى لا تحس بى ، فلماذا لا أستعمل حقى فى هذا المسند؟ ولتتضايق ، ولتغير مكانها فهذا افضل من هذه اللامبالاة التى لم أعد أحتملها ٠٠٠

« ـ ومتى سنتزوج ياجون ؟

ـ حين أعود من تلك الرحلة التى أتسلق فيها قمة « الأنديز »٠

ـ ليتك لا تذهب ياحبيبى ٠

ـ سأعود بطل العالم فى تسلق الجبال ٠

ـ أحبك هكذا ، أما انت فتحب ان تكون بطلا ٠

ـ لا أرضى ان تكونى زوجة لأقل من بطل »

آه يا عزيزتى ... لا أدرى كيف أعتذر لك عن ظنونى القاسية صحيح انك لا تعرفينها ، ولكن كيف أغفر لنفسى اننى ظننتك لاتحسين بى ؟

كانت لحظة رائعة تلك التى أحست فيها ذراعى بذراعها تعود الى المسند المشترك .. تعود هذه المرة فى ثقة .. عارفة مكانها .. كطائر لا يضلله الظلام عن عشه .. مستريحة خلف الذراع التى ظلت تنتظر . كانت لحظة لقاء حقيقى بين صديقين لا أحد يعرف تاريخ صداقتهما ، وكأنه لم يعد ثمة مجال للتردد او حتى انتظار الأسباب ..

والغريب ان لحظة اللقاء بين ذراعينا تأتى مع اللحظة التى يفترق فيها « جون وماري » فى الميناء .

وفى احدى مزارع كاليفورنيا حيث استقرت أسرة « ماري » تحس بوجود « جون » فى كل مكان ، فعلى المائدة لاتتحدث « ماري » مع أبويها الا عنه ، وفى الصحف لا تقرأ الا أنباء المسابقة المنتظرة فى تسلق الجبال ، والأزهار التى يعشقها تربى فى أحواض خاصة ـ تتعهدها هى ـ ليجدها حين يعود قد نمت ، والمهارى الصغيرة التى يهوى ركوبها تدرب فى انتظاره ، وحتى « كلارك » الذى يشرف على تربية الخيول فى المزرعة ، والذى يكتم حبه « لماري» كما يكتم حلمه بأن يصبح كاتبا مشهورا ، يجد نفسه فى النهاية ولا عمل له سوى الاستماع الى أحاديث « ماري » عنه ، اما الرسائل التى تصل منه ، فقد سمعتها الطيور والأشجار والخيول فى المزرعة كما سمعتها مع جارتى ، وأحسست أن دائرة سحرية تنبعث من كلماتها الحارة لتخترق جسدينا معا وتتصل الدائرة عبر ذراعين تشدهما خيوط غير منظورة ، وأحس فى لحظة أن ما بينى وبين جارتى ليس مجرد مصادفة أو وهم . ما الذى ينبغى أن يحدث لكى يقع الحب ؟ لا شىء

أكثر من أن يلتقى شاب وفتاة ، ثم تخلق المبررات خلقا ، ولا أعتقد أننا فى حاجة الى كلمات ، كل شىء يقع من تلقاء نفســـه وأروع ما وصلنا اليه أننا اكتشفنا معا لغتنا تلك التى لا يحســـها أحـد سوانا ..

ربما كان هذا هو ما تفكرين فيه .. هـا نحن معـــا ، وبين ذارعينا مكان لا يستطيع الهواء أن ينفذ منه .. وأروع الألحـــان يعزفها لنا أمهر العازفين ، وكاتب لانعرفه .. يعرف ما فى قلبينا ، ويكشفه لى ولك ولأبويك وللناس الذين نخافهم ، ومزارع كاليفورنيا الشاسعة الجميلة تستدرج أحلامنا خارج حدود المكان ، والخطوة القادمة يجب أن أبدأها أنا ... منذ البداية كنت رائعة وبسيطة ، ولا أظنك سعيدة بى وأنا أكلم نفسى طوال الوقت ، يجب أن يحدث شىء ينتمى الى هذا العالم الرائع الذى أصبحنا جزءا منه ، فالحقيقة الباردة أننا لا نزال نحتمى بالظلام ، وبالمسند المشترك ، وبالمصادفة وامتدت يدى هذه المرة لتلمس يدها فى رفق وحنان ، لم أتصور لحظة أن يدها ستختلج فى يدى للحظات خاطفة ـ وكأنها ترددت خلالها ـ قبل أن تسحب يدها من على المسند كله ...

لقد مرت لحظات كنت خلالها عاجزا عن تقدير الموقف .

أى جنون قادنى الى هذا السلوك ؟ كان كل شىء رائعا .. دون حاجة الى هذه الحماقة التى دمرت كل شـــىء ، كنت أحس تردد انفاسها . وشعرها يكاد يلمس وجهى ، وذراعها ملتصقة بذراعى ... ولكن كان كل شىء يبدو وكأننا غير مسئولين عنه .. أما الآن؟ مستحيل أن يكون وهما كل ماحدث ، لقد أحسست أنها ترددت ، أجل ترددت قبل ان تسحب يدها من يدى ، لست واهما هذه المرة ، كأنها لم تفاجأ بيدى ، كأنها .. كانت تنتظرها . وربما خشيت ان ترى امها يدينا مشتبكتين ، يكفى انها سحبت يدها فى هدوء دون أن يشعر

أحد ، ويكفى انها لا تزال بجوارى · كانت دائما فتاة عاقلة ولكن سهول كاليفورنيا أفقدتنى صوابى ، وحتى فى هذه السهول تقع أحداث جديدة ···

« ـ مستحيل يا ابنتى أن تبقى هكذا لا تأكلين ولاتنامين لأن جون لم يعد يكتب لك ·· ربما لم يكن جادا فى علاقته بك · من السهل أن تنسيه لو أردت ذلك !

ـ نعم يا ماما ··· ولكنى لا أريد ذلك !

ـ أنت صغيرة يا عزيزيتى لا تعرفين الناس والحياة ··

ـ وأنت يا ماما لا تعرفين جون ، أنا واثقة من أنه سيعود · !

ـ لماذا لا يكون لك بعض هذه الثقة فى نفسك وفى أبيك وفى ؟

وتصرخ « مارى » وهى تخرج وقبل أن تصفق خلفها الباب :

ـ أحبه أكثر من نفسى ومنك ومن أبى ! »

وبلا شعور وجدتنى ألتفت الى جارتى ، لأضبطها هذه المرة منتفتة الى · ولأول مرة أحس أن الدائرة السحرية تتصل من جديد ·· ورغم الظلام أبصرت فى عينيها الرائعتين نظرة نفذت الى قلبى ·· لا ·· لست واهما هذه المرة ، ولست آسفا لأن الذراع لم تعد الى مكانها ، كانت النظرة السريعة الخاطفة النافذة أكثر رقة وصلابة فى الوقت نفسه من ملمس ذراعها الناعمة ··

وحتى حين عدنا نستمع الى الحوار كنت أحس أننا نسمعه معا ·

« ـ مكالمة خارجية لك يامارى ·

وتهرع مارى فى جنون ، لابد أنه جون ، فليس فى العالم الخارجى أحد سواه ·

ـ من ٠٠ جون ؟

ـ لا ، أنا والده ، من أنت ؟

ـ مارى ، أين جون ؟

ـ يا ابنتى ٠٠ لدى أخبار لك عنه ٠

ـ ماذا ؟ قل ؟

ـ لقد فقد كلانا جون يا ابنتى ٠٠ سقط من فوق الجبل ٠٠٠ كان يعتزم الحضور او أنه عاد ٠

٠٠ جون لن يعود اذن ٠ ؟ لم يعد ذلك فى مقدوره فما الذى يمنعها من أن تذهب هى اليه ؟ أجل يجب أن تذهب اليه ٠ يجب ٠٠ ولا ينقذها من الموت غير « كلارك » الذى لا يزال يكتم حبه لها ٠

ـ يا ابنتى ياروحى ٠٠ مازلت صغيرة ٠٠ والزمن سيمحو جراحك وستجدين فى الحياة مسرات كثيرة ٠

ـ الحياة بدونه لا تساوى شيئا يا ماما !

ـ لماذا لا تفكرين لحظة فى حياة أبويك بدونك ؟ انك تريدين قتلنا يا مارى دون أن يعيد لك هذا جون !

ـ كنت يا ماما تظنينه وغدا ، يجب أن تأسفى لذلك ٠ الموت هو الذى منعه من المجىء ٠٠ لاشىء غير الموت كان يؤخره » ٠

وتلتقى نظراتنا من جديد ، كأنها على موعد ٠٠٠ لا لست آسفا على هذه الحماقة ، قبلها لم يكن من حقى أن أجد فى هذه النظرات أى معنى ٠ أما الآن « ومارى » تمنح الحب بكل هذه القداسة ، وملامح جارتى ترق وترتعش ٠٠٠ وشىء ما يسقط من يدها تحت قدمى ، فتنحنى للبحث عنه ، وأنحنى معها لأعيد لها المنديل ، فتلتقى يدانا وعينانا فى لحظة ذاهلة ، أحس خلالها أنها غفرت كل شىء

دون كلمة . لا لن أحلم بما هو أكثر .. يكفى أننا عدنا صـــديقين حقيقيين هذه المرة ... لن أترك شيئا ما يفسد الأمور بيننا .. !

لست مستعدا لأن أخسر هذا الشعور الرائع بأن هذه الفتاة التى لا أعرف لها اسما قد عادت صديقتى ...

كنت أتابع مبهورا قدرة الحياة وقدرة « كلارك » على أن يأسو جراح « مارى » حين أحسست بذراع جارتى تعود الى المسند .. ودون أن التفت اليها ، وعيناى مشدودتان الى الشاشة ، كانت أصابعى تمر فى رفق على يدها الوادعة المستسلمة ، وكانت ذراعانا قد تراجعتا معا ـ كأنما تحركهما ارادة واحدة ـ عن مقدمة المسند بحيث أصبحتا بيننا تماما كسر نخفيه حتى عن عيوننا . منذ تلك اللحظ لم نتبادل نظرة واحدة .

كانت كل مشاعرنا مع السر الرقيق الذى تخفيه يدانا المرتعشتان كطائر نخشى أن يموت أو ينفلت .

« ـ ليس مايدهشنى يا « كلارك » أنـك أخفيت حبك لـى منذ عرفتنى ، بل أنك ظللت تحبنى رغم أنك تعرف كل شىء .

ـ ما أعرفه عنك جعلنى أحبك أكثر .

ـ لا أدرى ياكلارك كيف كانت ستصبح حياتى لو لم تكن هنا ؟ أنك لم تكتف بأن تنقذنى من الموت بل أنقذت منه « جون » أيضا بعد أن كتبت عنه روايتك الرائعة .. »

وفى اللحظة التى يضم فيها كلارك مارى الى صدره ترتعش يدانا وينفلت الطائر الذى كنا نخفيه بينهما .

ومع أول شعاع من الضوء لمع فى الصالة ، عاد المسند المشترك مجرد حاجز خشبى ، وبرز الناس فجأة وكأنهم أتوا مع الضـوء ، وبدونا وسطهم صغيرين عاجزين ، وبدت المسافة الضيقة التى تفصل بيننا فى صلابة الحواجز ·· كانت جارتى تقف خلف أمها وتسوى ملابسها ، وتتبادل معها كلمات متقطعة ، وتتحاشى النظر الى ·· وكانت المسافة التى تفصل بينى وبين جارتى تفصـــل بين جميـــع الخارجين الذين كانت تبطىء خطواتهم فجأة حتى لايخدشوها ··· مرة واحدة التفتت جارتى خلفها قبل أن تغلق وراءها باب التاكسى الذى ركبته الأسرة أمام « السينما » · كنت واقفا على الرصيف فى انتظار تلك النظرة التى كانت آخر عهدى بتلك الفتاة · وحتى بعد أن أختفى التاكسى فى نهاية الطريق وبعد أن أصبحت المسافة بيننا كبيرة جدا الى درجة لاتصدق ·· كنت أحس أنه لا فرق أبدا بينها وبين تلك المسافة الضيقة التى كانت تفصـــل بيننا حين برز الناس فجأة ·

النـــاس والحقيقـــة

حين أوى الحاج رضوان الى فراشه فى تلك الليلة ، لم يكن ما يريده هو النوم ، كان فقط يود ان يفكر وحده بهدوء فى كل ماحدث لقد ظل طوال النهار وجزءا من الليل يستقبل الناس الذين توافدوا على داره من قريته ومن القرى المجاورة · ولأول مرة وجد نفسه فى موقف من يستمع الى هؤلاء الناس دون ان يكون فى مقدوره أن يقول لهم كلمته لتكون كالعادة الكلمة الأخيرة والحاسمة · لأول مرة وجدهم يرفضون رأيه رفضا باتا ، ولأول مرة يجد نفسه ضعيفا أمام رفضهم ، وفى النهاية موافقا عليه وسعيدا به ·

ورغم ذلك ، لم يكد يغلق خلفه باب حجرته ، ويغير ملابسه ، ويطفىء المصباح المعلق على الحائط بجوار سريره ، ويسحب أطراف الغطاء على جسده ، حتى وجد جميع هؤلاء الذين غادروا داره منذ حين يملأون حجرة نومه ، فلا تضيق بهم الحجرة ولا يضيق هو بهم ،

وراح يستمع الى كلماتهم ، الى بعض هذه الكلمات ·· التى كانت تتردد منذ حين ··

« من كان يظن أن يوما كهذا سيأتى ؟

– لقد جاء من أجل ان يأخذ الحاج رضـــوان المكـــان الذى يستحقه ··

– فى الحقيقة هو يستحقه من سنين طويلة ·

– منذ سنين كانت الدنيا غير الدنيا ·

– لا يزال الحاج فى أحسن صحة وأمامه عمر طـــويل باذن الله ·

– يا رجال ·· لقد كبرت ·· البركة فى شـــباب هذه الأيام (استمع الحاج الى صوت نفسه وكأنه شخص آخر تماما) ·

رد شاب من قرية مجاورة : شباب هذه الأيام يريدون ان تعرف انهم لم ينسوا خدماتك للناس ·

(حاول الحاج رضوان ان يتذكر اسم الشاب فلم يفلـــح ، دمعت عيناه تأثرا ، تقلب فى فراشه ، فكر ان هذا اليوم جاء متأخرا حقا) ·

– يا رجال انا مقدر لعواطفكم ·· ولكن الحقيقة ان صحتى لم تعد تحتمل المعارك الانتخابية ··

– بالنسبة لك لن تكون معركة – ربما تكون كذلك لمن يفكر فى منافستك ·

– من يجرؤ على التفكير فى ذلك ؟ قالها أحد الحاضرين فى عصبية ·

ـ يا رجال لا تقولوا هذا الكلام ، فهذا من حق أى شخص ٠

ـ فى الماضى كان نجاح المرشح الذى تؤيده شيئا مؤكدا ٠

ـ أين نحن من هذا الماضى ؟ اننى منذ سنوات أعـــانى من السكر وأخيرا القلب ٠ لم تعد صحتى تحتمل زيارات البلاد ٠

ثم التفت الى الشيخ عطيـــة الذى يجلس بجواره طـــوال النهار :

ـ قل لهم يارجل ، أنت أدرى الناس بحقيقة حالتى ٠

هز الشيخ عطية رأسه موافقا وقال : ـ فى الحقيقة الحـــاج رضوان ٠٠

فقاطعه أكثر من صوت :

ـ يا حاج لست فى حاجة الى زيارة البلاد ، أنت منذ ثلاثين عاما وأنت تزور قرى الدائرة ، وأنت تقوم بعمل دعاية انتخابية لنفسك ـ دون أن تقصد ـ ويظهر أنك الوحيد الذى كان يعرف أنه سيأتى يوم يصبح فيه للفلاحين نصف المقاعد فى مجلس الأمة » ٠

ساعتها ضحك الرجال جميعا واختلج وجه الشـــيخ عطيـــة اختلاجة خفيفة تحولت الى ابتسامة شـــاحبة حين أضـــاف أحد الحاضرين ٠

ـ : كان يجب ياحاج رضوان أن تخبر الشيخ عطية وهو جارك بهذا السر ، اذن لما تردد فى منافستك من زمن بعيد ٠

تمتم الحاج رضوان ، وهو يختلس نظرة خاطفة الى وجـــه الشيخ عطية فى محاولة يائســـة لفهم معنـــى هذه الابتســـامة الشاحبة :

– يارجال الشيخ عطية جار قديم ، وهو معنا دائما فى السراء والضراء ٠

أنهى الشيخ عطية الحديث وهو يهم بالقيام وينقب بعصاه عن حذائه الذى تراجع تحته قليلا تحت المقعد ٠

– ياحاج رضوان ، لا بد مما ليس منه بد ، والأمر لله من قبل ومن بعد ٠

لحظتها وقف الرجال جميعا وتمتم الحاج رضوان وهو يهز حبات مسبحته :

– « يا رجال أنا فى خدمتكم دائما ، ويفعل الله مايريد ٠٠٠ »

تململ الحاج رضوان فى فراشه ، أحس رغم الاعياء الذى بدأ يحل بجسده بيقظة مفاجئة تلهب رأسه ، فاعتدل قليلا فى فراشه ٠

هل يمكن أن يزعم لنفسه أنه قبل هذا الأمر مرغما ؟ أو أنه وافق على شىء يمكن أن يأسف عليه يوما ؟ مستحيل ، واذا كان هناك شىء يستحق الأسف فعلا فهو أن هذا اليوم قد جاء متأخرا حقا ، لو أن ذلك حدث منذ عشرين عاما ؟ وراح يتأمل فى حنان صورته منذ ذلك التاريخ ، بجلبابه الصوفى الغامق دائما وعمامته الناصعة أبدا ، وحذائه الذى يبيت كل ليلة لامعا رغم أنه يدوس به طوال النهار فى الأرض المتربة ، والجسور المبتلة ، ولا يبالى أن يغوص به فى الوحل من أجل الوصول الى أى مكان ينتظره فيه ناس ، خلال عشرين عاما وهو يتحرك داخل هذه القرى ٠٠ لم يشعر أبدا أنه ينتمى الى عائلته وحدها أو حتى قريته ، كان يوجد دائما حيث توجد مشكلة أعيا الناس حلها ، على حدود الأرض التى تقسم ، وعلى مدار السواقى حيث المياه الشحيحة تثير بين الناس أعنف صراع ، وفى الأجران حين تجمع المحاصيل وتقسم ، وفى أعماق الدور حيث

تروى أدق الأسرار فى همس رغم الأبواب المغلقة ، وتصل الأمور الى حد الطلاق ..

ورث عن أبيه عشرة أفدنة جعلته دائما فى غير حاجة الى أحد، فى موقف الرجل القادر على أن يقول الحق دون اعتبار لأى شىء ، وكثيرا ما كانت كلمته تنجح فيما تفشل فيه الحكومة ، وبالأخص حين يحتدم الخلاف بين أسرتين أو بلدتين وتصل الأمور الى حد استخدام السلاح ، يعرفه مأمور المركز كما يعرفه أقل أجير يعمل بالفأس . الجميع لجأوا اليه يوما ، وطرقوا نافذة حجرته تلك فى ساعة من الليل ، الجميع شربوا قهوته ، وأكلوا زاده ، وخلال هذه السنين لم تزد فداديته العشرة قيراطا واحدا ، ولم يشعر يوما بحاجته الى ذلك . حدث مرة بعد أن رزق بطفله الوحيد وهو على مشارف الأربعين أن قالت له زوجته :

ـ يا حاج يجب أن تفكر قليلا فى مستقبل ابنك .. يجب أن ..

وقاطعها الحاج الذى كان يعرف دائما فيم تفكر :

ـ يا حاجة .. الأرض ليست كل شىء ، سيتعلم ابننا وسيكون له شأن آخر .. البشوات أصحاب الأرض الواسعة يقصدون الحاج رضوان ، ويأخذون رأيه ، ويتمنون خدمته ..

وفى الحقيقة ، كان يشعر دائما انه رجل هذه المنطقة دون منازع . كان يدرك قيمة الذكاء والحلم والشجاعة ، وانه عن طريقها وحدها أمكنه أن يصبح كل شىء فى حياة الناس ، فما من واحد من الناس الكبار فى المنطقة كلها عقد صفقة بيع أو شراء الا وأخذ رأيه فى كل ما يتصل بها ، وما من واحد منهم كانت له مصلحة تحتاج الى بقائه فى القرية ، الا وأسندها الى الحاج رضوان وسافر الى القاهرة ، ولم يحدث مرة واحدة أن قبل الحاج رضوان مليما واحدا

من أجل هذه الخدمات ، كان يملؤه زهوا أن هـــؤلاء الناس الكبار يحترمون كلمته ، وأنه الوحيد فى كل هذه القرى الذى يمكنــه أن يطرق أبواب بيوتهم فى القاهرة فى أى وقت ويقابلهم فى أى موعد ، ولم يذهب مرة واحدة الا ومعه مجموعة من المشاكل التى لا تتصل به مريض يريد توصية لطبيب كبير لتخفيض أجر العملية ، تلميذ شقى والده بتعليمه ويبحث له عن عمل ، بناء مدرســـة يحتاج لتوصية مسئول ليصرح به وتصرف اعانته · ولسنين طويلة نجح الحــاج رضوان بعبقريته الخاصة فى أن يحقـــق نوعا غريبا من العدالــة والسعادة فى هذه المنطقة ·

وحين تغيرت الحياة فى وطنه ذلك التغير الذى انتهى به هو نفسه الى أن يصبح مرشحا لمجلس الأمة ، وحين اهتزت الأرض تحت أقدام الذين كانوا كبارا ، أدرك هو كما أدرك كثيرون أنه كان يمتلك شيئا حقيقيا جدا ، لأن ما يمتلكه لا يستطيع أحد أن يمسه ، والغريب أنه ظل محافظا على علاقاته مع الجميع ، على أن أغرب علاقة كان الحاج رضوان يحافظ عليها ، هى علاقته بالشيخ عطية ، جــاره فى البيت ، وفى الحقل ، والرجل يختلف عنه فى كل شىء ، ورغم ذلك فهو يتبعه كظله · ولا يراهما الناس الا معا · طوال ثلاثين عامــا والشيخ عطية لا يفارق الحاج رضوان وفى الوقت نفسه لا يكف عن لومه ·

« يا حاج رضوان ، أنت رجل طيب ولكن الناس لا يستحقون تعبك من أجلهم ··

« يا رجل صحتك لم تعد تحتمل كل هذا العناء ، فكر قليلا فى نفسك ·

« ابنك أحق بأمــوالك التى تضـــيع على من يســـتحق ومن لا يستحق · »

رغم ذلك كان الشيخ عطية من أول المنتفعين بما يعيبه على الحاج رضوان : يأكل مع ضيوفه ، ويفيد من نفوذه لدى الآخرين ، ويحضر معه مجالس الصلح ليوافق على آرائه ، وليبدو كأنه معه ٠

اليوم فقط يعرف الشيخ عطية معنى حب الناس ، لقد ظل يكدس الأموال طوال حياته حتى أصبح يمتلك ثلاثين فدانا ، ولكنه لا يستطيع أن يمتلك رغبة رجل واحد فى انتخابه ، لم يتصور لحياته كلها معنى بعيدا عن الناس ، بعيدا عن حياتهم ومشكلاتهم ومتاعبهم بل انه لا يتصور حياته يوما واحدا دون الشيخ عطية نفسه ، انه لم يأسف مرة واحدة على شىء قدمه له أو لغيره ، كل ما فى الأمر أن هذا اليوم جاء متأخرا بعض الشىء ، ولكن ليحمد الله على انه جاء ، جاء على الأقل ليكتشف الشيخ عطية أن الحياة ليست أموالا فقط ! وارتسمت على شفتى الحاج رضوان ابتسامة سعيدة مع بوادر النوم ، لأن الشيخ عطية يمكن أن يغير رأيه فى الحياة ٠ لقد أحس رغم الاعياء الذى حل به أن صحته لا تزال على مايرام ، وأنه سيكون قادرا على زيارة جميع قرى الدائرة ، وأن الوقت لم يمض بعد ، ولن يتخلف الشيخ عطية عن مرافقته ، وأنهما سيكونان معا رغم كل شىء ٠

كانت الحركة قد هدأت فى دار الحاج رضوان ، وأطفئت (الكلوبات) التى تضاء كل ليلة ، ولم يبق معه سوى الشيخ عطية الذى أخرج من جيبه آخر منشور طبعه « حسين النجار » المرشح الذى جرؤ على أن ينافس الحاج رضوان ٠٠٠

ـ أنظر ما يقوله عنك ابن اللئيمة ٠٠٠ راح يستعمل سلاحا قذرا ٠

ألقى الحاج رضوان نظرة سريعة على المنشور وتذكر أنه

قرأه عصر اليوم ·· وفجأة توقف فى منتصف القـــراءة وقال فى عصبية ·

ـ كلام حقير ··· لن يصدق أحد هذه الأكاذيب ··

اعتدل الشيخ عطية فى جلسته ولمعت عيناه ببريق غريب ·

ـ ولكن النـــاس يرددون هذه الأكـــاذيب فى البيوت وعلى المصاطب ·

ـ البلهاء هم الذين يصدقون هذا الكلام ويرددونه ·

ـ البلهاء أصوات فى الانتخابات كالعقلاء تماما ·

ـ ماذا تريدنى أن أفعل ياشيخ عطيه ؟

ـ تطبع منشورات ترد بها على أكاذيب « حسين النجـار » وتدفع عن نفسك هذه التهم ·

هكذا أصبحت متهما يدافع عن نفسه ، لن يأتى اليوم الذى أرد فيه على شخص كهذا واذا كان الناس قد نسوا ··

قاطعه الشيخ عطية محتدا : ـ عيبك دائما أنك رجل طيب ، تعتقد ان الناس مثلك ، الناس كالأطفال لا يذكرون الا ماهو أمامهم · ثم لماذا تأخذ على خاطرك من الناس كأنهم صديق أو أخ ؟

يا رجل أنت فى معركة ولا بد أن تستعمل أســـلحة عـدوك ، وبالأخص وهو يذكر أشياء ربما لم يفهمها على حقيقتها أبناء هذه الأيام ···

ظل الحاج رضوان مطرقا ، تنم ملامح وجهـه عن ذلك الجهد الضخم الذى يبذله حتى يتجنب الجدل مع الشيخ عطية ، كان متعبا يود أن يستريح ·

قال وعيناه تعبران عن أسف وحيرة :

ـ لا تؤاخذنى ياشيخ عطيه ، سنتدبر الأمر فى الصباح ٠

فى تلك الليلة كان الحاج رضوان يحاول عبثا أن يطـرد من رأسه كلمات الشيخ عطيه ، طوال عمره كان يسمع منـه مثل هذه الكلمات دون أن تقلق خاطره ، وربما لو سمعها قبل هذه الأسابيع الثلاثة التى مضت على ترشيحه لمجلس الأمة ، ما توقف أمامها لحظة واحدة ٠ أما الآن فما أكثر الأشياء التى تغير احساسه بها ، لايدرى كيف حدث ذلك كله ؟ لقد رأى خلال هذه الأسابيع ما عجز عن رؤيته فى سنوات حياته كلها ٠ فى البداية كان يعتقد أنه سيزور البلاد التى يعرفها كما لا يعرفها أحد غيره ، وفى هذه المرة أصر على أن يدخل كل حارة وأن يزور كل بيت ٠٠ وفى كل يوم كان يجد نفسه أمـام مئات الوجوه التى يلتقى بها لأول مرة ، وجوه نظيفة لتلاميذ صغار ، ووجوه مغبرة لشباب فى سن العمل ، ووجوه مغضنة لشيوخ فى مثل سنه ، كانت وحدها هى التى تحتفى به ، بعض هذه الوجوه كان ينظر اليه فى فضول ، وبعضها كان يرمقه فى لا مبالاة ، وبعضها كان يبدو ذاهلا كأن الأمر لا يعنيه فى شىء ٠ !

فى كل يوم كان يبصر هذه الوجوه التى لم تطلب يوما عونه ، ولم تطرق نافذة حجرته فى أى ساعة من الليل ، كان يبصرها وهى تتزايد وتكثر وتكاد تغرق فى ملامحها البليدة المحايدة وجـوه من يعرف من الناس !

فى كل يوم يشعر بأنه يطفو على سطح هذه الوجوه كقشـة ضئيلة لا تملك مصيرها رغم أنها تبدو دائما على السطح !

وكان احساسه بأن كل هذه الوجوه ، كلها دون اسـتثناء ، سوف تصنع يوما طابورا طويلا يمتد فى كل قرية لتقرر نجاحـه أو فشله ، كان هذا الاحساس يصيبه بدوار ٠٠

ماذا يعنى الفشل بالنسبة لشخص مثل « حسين النجار » ؟

لا شىء ٠٠ أما بالنسبة له ؟

لأول مرة يشعر بأن الأمر يخرج من يده ، لم يعد رجل هذه المنطقة ، هذه الوجوه العديدة التى لا يستطيع مخلوق فى الدنيا كلها أن يعرف ما يدور فى رءوسها هى التى ستقرر مصيره ! ربما كان الشيخ عطية مصيبا هذه المرة ! لماذا لا يطبع منشورات يوضح فيها حقيقة صلته بالبشوات السابقين ، ناس كثيرون يجهلون هذه الحقيقة الشباب الذين كبروا فجأة فى هذه الأيام ، التـــلاميذ الذين كانوا أطفالا حينما كان يكد من أجل أن يبنى لهم مدرسة ٠ كل هؤلاء يجب أن يعرفوا الحقيقة ٠٠ ولكن عليه أولا أن يوضحها لهم ٠ وفى هذه الليلة أبصر الحاج رضوان ، بعد أن غرق فى النوم ، وجوها عديدة ترجوه أن يرشح نفسه لمجلس الأمة ، ولكنه كان يرفض رفضا قاطعا مؤكدا أن صحته لا تحتمل ، وأنه قد كبر ، وأن البركة فى شباب هذه الأيام ٠٠

***

فى ضوء « الكلوب » الذى يتدلى من سقف حجـــرة الضيوف بدت عيون الرجال وكلها تلتقى عند وجه الحاج رضوان الذى بدا ساهما مطرقا ٠

ـ ماذا قلت ياحاج ؟ لابد أن ننتهى الآن لرأى فأهل « كفـــر الأمير » ينتظرون منك كلمة هذه الليلة ٠٠ وقد طال الكلام دون أن نصل لرأى ٠٠

بهذه العبارة قطع الشيخ عطية الصمت المخيم على الحجرة ، ومن جديد عاد الصمت ثقيلا خانقا ٠٠

ولأول مرة وجد الحاج رضوان نفسه عاجـــزا عن أن يقول الكلمة التى ينتظرها منه الناس ، بل وعاجزا عن أن يفهم حقيقـــة النوايا التى تختفى تحت عمامة الشيخ عطية وخلف التجاعيد الصلبة التى تملأ دائما وجهه الخالى من أى انفعال ...

« منذ أسابيع أخبره الشيخ عطية بطريقة من يفضى بسر خطير أن « حسين النجار » قد ألقى بآخر سلاح فى المعركة وأنه ســيوزع نقودا على أهل بلده كفر الأمير ..

لحظتها خيل للحاج رضوان أن الشيخ عطية يندد بطريقته فى الحياة .. وأنه يتحدث بأسلوب خفى عن مغزى المال .. الذى يملكه. ولكنه فوجىء بالشيخ عطية نفسه يتبع الخبر الغريب بأن أخرج من جيبه مائتى جنيه لتكون تحت تصرف الحاج رضوان ان اذا احتاج لهذا السلاح ... لحظتها دارت الدنيا بالحاج رضوان ، أحس أن المعركة لم تعد بينه وبين « حسين النجار » وانما بينه وبين الشيخ عطية نفسه فالشيخ يثق تماما فى أنه لا يلقى بنقوده فى البحر ، وأنها سترد له مهما تكن النتائج فاذا نجح يكون هو الذى اشترى نجاحه، واذا فشل يكون قد فشل رغم كل المحاولات . ولم يكد الحاج رضوان يلتقط أنفاسه من هذا الموقف حتى وجد الشيخ عطية يدفع به دفعا الى حافة رهيبة فى موقف لا يدرى كيف يتصرف فيه ..

لقد أخبره الليلة أمام اصدقائه جميعا أن أهالى كفر الأمير بلد « حسين النجار » يدعونه لزيارة بلدهم .. لأنه البلد الوحيد الذى تجنب زيارته حتى لا يعرض نفسه وأنصاره للمشكلات ..

حاول بكل الوسائل أن يعتذر عن هذه الزيارة ، ولكن الشيخ عطية انبرى له يفند جميع حججه بمنطق .. غريب .

ـ لا أريد أن أعرض الناس للمشاكل والفتن ..

ـ ولكن عدم ذهابك سيعرض أنصارك هناك للاحراج ...

ـ أنت اخبرتنى ياشيخ عطية أن حسين النجار قد دفع فلوسا لأهل الكفر .

ـ لقد أخذوا فلوسه وسيعطونك أصواتهم !

ـ أصبحت تثق بالناس ياشيخ عطية . من يضمن لك هذا كله ؟

ـ وأنت لماذا أصبحت لا تثق بهم ؟ . انهم متحمسون لك أكثر من أى بلد آخر لأنهم وحدهم الذين عـــانوا من « حسين النجار » وأطماعه ...

ـ أنت تقول انهم مصممون على اقامة صوان وحفل وأنا أزور الناس فى بيوتهم ولا أعرف كيف أخطب فى صوان مليء بالناس !

ـ لن تحتاج لأن تلقى أى خطاب ، سيقوم بذلك الشيخ أحمد الذى حصل على ثانوية الأزهر وظل بلا عمل الى أن وظفته بوزارة الأوقاف .. يريد أن يرد لك الجميل ويذكر الناس بخدماتك .

كان ذكر الشيخ أحمد هذا وحده كافيا لبعث المخاوف فى نفس الحاج رضوان فهذا الشاب فشل فى أن يتم دراسته واشتهر فى خلق المشاكل والفتن .. ولم يبحث له الحاج رضوان عن عمل الا من أجل خاطروالده .. وليريح الناس من مشاكله ... !

ـ ماذا قلت ياحاج ؟ الناس ينتظرون منك كلمة الليلة !

وظل الصمت سائدا ..

« ما الذى يريده هذا الرجل ؟ كأنه يستعجل النهاية ؟ انه يعرف جيدا ماذا يمكن أن يحدث فى حالات كهذه .. خيمة مليئـــة بآلاف

الوجوه التى لايعرف أحد ماذا يدور فى رءوسها ، بالعقلاء والبلهاء بالصغار وبالكبار ، كأن هذا الرجل يريد أن يقدم دليلا قاطعا على أنه كان أكثر دراية من الناس ٠٠ انه لا يريد سوى أن يستمع بهذا الصمت ٠٠ هذا الصمت الذى يطول ويطول ٠٠ يكشف عن خوفى من الناس فاذا وافقته فى النهاية كانت المغامرة التى لا أعرف كيف تنتهى ؟

أى نوع من الناس هذا الشيخ عطية ٠٠ ؟ كنت أعتقد انه سيكشف معنى خواء حياته ، فاذا بى أتيح له أعظم فرصة ليكتشف أننى لست واثقا من شىء ٠٠ كان يجب أن أحب فى هذه الدنيا شيئا محددا ٠٠ شيئا ألمسه وأقبض عليه فلا تفلته أصابعى ٠٠ شيئا أستطيع أن أحطمه حين يخذلنى ٠٠ أما هؤلاء الناس ، هذا الشىء الذى لا أعرف حدوده ووجوده ٠٠ !

وفجأة رفع الحاج رضوان رأسه كغريق يدفع بجسمه الى السطح قبل أن يبتلعه القاع :

ـ يارجال غدا نذهب الى كفر الأمير ٠٠٠

***

الخيمة مليئة بالناس ٠٠ لا مكان فيها لقدم ٠٠ الصفوف الأولى يجلس فيها الحاج رضوان وأصدقاؤه ٠٠ الناس يهتفون باسم الحاج رضوان خادم الجميع ٠٠ الحاج ينقل بصره بين مئات الوجوه التى طالما أرعبته وأسعدته ، الصمت يخيم حين يبدأ المقرىء فى تلاوة قول الله ٠٠

« ان ينصركم الله فلا غالب لكم » الحاج رضوان يحدق فى الشيخ عطية ٠٠ لا مكان لمخاوفه ٠٠ كاد يظلم الرجل ٠٠ كيف يمكن

أن تختلط الأمور الى هذا الحد ·· ملامح الشـــيخ عطية البارزة لا تعبر عن شيء ··

الشيخ أحمد يقترب من « الميكروفون » ويبدأ الخطبة ···

اخوانى أهالى كفر الأمير ·· بسم الله الرحمن الرحيـــم · وباسمكم أرحب برجل كلنا نحبه وكلنا نقدر خدماته لهذه البلاد ، أرحب به فى بلده وبين أهله ·· ولا أعتقد أنكم فى حاجـة الى أن أحدثكم فى هذه الخدمات ·· فكلكم تعرفونها ، والشـــخص الذى يتحدث اليكم الآن مدين للحاج بالكثير وقد آن الأوان لكى نرد للرجل ديونه العديدة ··

وقد سألت نفسى هذا السؤال : كيف نرد للرجل جميله العظيم؟ كيف نشكره على كفاحه الطويل فى هذه البلاد بعد أن أفنى شبابه وصحته من أجلنا ؟ حتى قارب الستين من عمره المديد وأصبح فى حاجة الى أن يعرف أن جهاده لم يضع عبثا ، اننى بأسمكم أقول له أيها الرجل ·· لقد كافحت وقاسيت وتعبت ·· وآن لك بعد هذا كله أن تستريح ·· ليس من العدل أن نطالبك بعد هذه السن بمواصلة الكفاح ·· واننى باسم أهالى قرية كفر الأمير أطلب أن تتنازل عن ترشيح نفسك لشاب يقدر خدماتك ، ويعد بأن يسير فى نفس طريقك ·· ذلك هو ابن بلدنا الشيخ حسين النجار · !

بعد أن وصل الشيخ أحمد فى خطابه الى هذا الحد ·· امتدت أيد كثيرة تجتذبه من أمام الميكرفون ·· وفى جوانب الخيمة ارتفعت أصوات غاضبة ثم ارتفعت المقاعد ثم علا الصراخ فى كل مكان ···

***

وفى ذلك اليوم لم يكن للناس فى الدائرة من حديث ســوى

نتيجة الانتخابات · ومع أنه من المستحيل أن يسجل شخص مثل هذا الحديث بدقة كاملة الا أنه من المؤكد أن هذا الحوار قد جـرى فى مكان ما من هذه القرى وفى وقت ما بين الرجال ··

ـ لم ينجح أحد فى تاريـــخ البـلاد بمثـــل هذا العدد من الأصوات ·

ـ الشيخ رضوان على كل حال جدير بهذا النجاح ·

ـ الحادث الأخير كان له تأثير على عواطف الناس ·

ـ يقال ان الشيخ عطية كان مشـاركا فى هذه المؤامـــرة الحقيرة ··

ـ لم تكن هناك مؤامرة ، « حسين النجار » هو الذى استغل الموقف واستخدم فيه الشيخ أحمد ·

ـ الشيخ عطية أصيب فى المعركة ···

ـ هذا لا يدل على شىء · فالحـاج رضـــــوان أصيب هو الآخر ·

ـ لقد كسب الحاج رضوان الانتخابات ، ولكن من المؤكد أنه خسر الشيخ عطية ··

ـ لو أن هذا حدث فسيكون ربحا أكثر من الانتخابات ··

ـ اطمئنوا ·· لن يفترق الرجلان أبدا ·· فقد كانا معا فى المستشفى على سريرين متجاورين ·· وحين امتلأت ساحة المستشفى بالمهنئين رأى الناس فى شرفة المستشفى الرجلين معا ·· كانا يلوحان معا للناس ، كل واحد بالذراع السليمة التى بقيت له ··

زيـــارة

لم يتخلف مرة واحدة عن زيارته فى مثل هذا اليوم ، الذى أصبح كل معناه بالنسبة له أنه اليوم الذى يراه فيه • ولقد كان يزوره فى أيام أخرى خلال العام ، ولكن تلك الزيارات لم تكن تخضع لموعد، أما هذا اليوم فقد كان أصدقاؤه يعرفون أنه سيسافر فيه الى القرية فلا يسأل أحد عنه ، وكان أقاربه فى القرية يعرفون أنه قادم ليراه فيكونون فى انتظاره ، ومع أنه كان يمضى هناك أكثر من يوم يلتقى خلاله بناس كثيرين ، فقد كان الجميع يحسون أنه انما جاء من أجل زيارته وأن كل مايفعله انما هو جزء من هذه الزيارة ••

وفى هذا اليوم سافر الى القرية كما تعود أن يفعل منذ سنين ، وقبله بأيام قال لأصدقائه : سأسافر لزيارته • فأطرقوا جميعا وكتب لأقاربه : سأكون عندكم فى الموعد نفسه ، فكتبوا له : ســـنكون فى انتظارك ••

فى الصباح الباكر كانت سيارة تقطع الى قريته الطريق نفسه الذى يحفظ كل معالمه ، مداخل المدن والقرى ، والحقول الغارقة فى الضباب ، والمسافرين بعيونهم القلقة ، والباعة على جانبى الطريق ، والكبارى التى تربط البلاد والناس ... كل هذه الأشياء كانت دائما جزءا من لقائه معه ، جزءا من بداية هذا اللقاء ، يشهد شوقه وحنينه ولهفته ، وكانت أيضا جزءا من نهايته ، يشهد الشوق والحنين ، وقد ذاب فيهما أسى رقيق غامض .. مصدره ذلك الشعور بأن كل شىء يمضى وينفلت من أصابعنا مهما اشتدت قبضتنا عليه ، وحبنا له ، وأن المكان عاجز دائما عن أن يضم كل ما يتسع له القلب ، وأن الزمن ينزلق فى هدوء مثير كسكين تذبح دون ألم ، فلا تحس بحركته الا حين نلتقى بهذه الوجوه التى لا نراها دائما ، فتبدو كأنها تتغير فجأة أمام أعيننا .. ودائما تصبح تلك المعالم قطعة من قلبه ومن مشاعره . !

أما فى هذا الصباح فقد بدت له تلك المعالم ـ وكأن لها وجودا مستقلا ـ غريبة ونائية ومهجورة ، وعاجزة عن أن تكون جزءا من أى شىء حتى من الأرض التى تقف عليها ، كل شىء منفرد ولا معنى له ، والعربة وحدها تندفع فى هذا الفراغ كأنها صرخة مجنون ، وهو بداخلها قابع مستسلم فى انتظار تلك اللحظة التى سيلتقى فيها به .

***

لا يزال يذكر آخرلقاء معه ، كان منذ شهور قليلة ، لم يكن هناك موعد ، ليلتها كانت القرية غارقة فى الظلام والسكون ، لم يطرق الباب كعادته ، بل وجده مفتوحا ، وجد صالة البيت مليئة بالرجال الذين لم يسمع سوى تردد أنفاسهم ، أقدامهم هى التى كانت تتحرك كثيرا دون سبب واضح . فوجئوا بوجوده ، قالوا له :

ـ كنا سنرسل لك .

ـ لماذا ؟

فلم يجب أحد ، وجوههم بدت كلها فى ضوء المصباح المعلق على الحائط ، وكأنها توشك أن تعتذر لـــه عن شـــىء ... شىء لا تستطيع التعبير عنه ... عبثا حاول ان يلمح بين الوجوه الكثيرة ... الوجه الذى يجىء من أجله ، كان دائما يخف للقائه حين يسمع صوته ، ولم يجرؤ على السؤال عنه .. شق طريقه الى حجرته ... فى اندفاع ... حاولت الأيدى الكثيرة الممتدة أن تخفف منـه .. قالوا له : لقد نام منذ قليل . رفع الغطاء الأبيض عن وجهه .. لم يفكر قط فى أن يوقظه ، كان غارقا فى نوم عميق وغريب ... وكأنه قد سئم كل حركة ، حتى تلك الحركة التى كان يضمه فيها الى صدره والتى كانت تطول كثيرا قبل ان يصبح قادرا على أن يقول كلمـة واحدة . !

لم يحتمل رؤية الوجه ، وقد سكنت ملامحه ذلك الســـكون الغريب ، ارتفعت كفاه تغطيان عينيه ، قادته بعض الأيدى الى خارج الحجرة ، لم تنجح الكفان لحظة واحدة فى ابعاد الملامح الساكنة عن عينيه ، لا يدرى متى تركهما يسقطان الى جانبيه .. وحين فتح عينيه وجد صورة الوجه الساكن تكبر وتغطى كل ما تقع عليه عيناه ... سكون الوجه يتسلل الى كل شىء وينفذ الى قلب العالم فيحس أن الكون سيلفظ أنفاسه .. ويسود عالم السكون ، ويسيطر عليه احساس غريب ، احساس بأنه لا جدوى من أى شىء ، ولا معنى لأية حركة ، ما دام ذلك السكون ينتظر فى نهاية الأمر ، ينتظر الفـــرح والألم ، ينتظر الأمن واليأس ، ينتظر الراحة والشقاء .. كان ذلك السكون العميق الذى يلغى الشعور بأى شىء حتى بالألم ، هو الوجه الآخر الذى لم يره من قبل لهذا العالم ... واستراح لهذا الوجـه كما لم يسترح لشىء فى تلك الليلة ... انه الوجه الحقيقى لهذا

العالم ... والملاذ الوحيد الذى سيحتمى به من العذاب ... ومن الزيف ...

لايدرى متى بدأ هذا الوجه ـ الذى كان يظنه الوجه الحقيقى للاشياء ـ يتخلى عنه ويخذله .. لقد فتح عينيه ذات صباح فلم يبصر الملامح الساكنة التى كانت تغطى كل ما تقع عليه عيناه ..

أبصرها فى ذلك الصباح تنبض وتتحرك الحركة نفسها التى كانت تطالعه كلما طرق باب بيته فى القرية .. حركة الشوق والحنين .. والذراعين المفتوحتين .

ـ أهلا أهلا .. دعنا منك .. أنت ولد سيىء .

وترتعش ملامح الوجه ، وتزحف التجاعيد حول العينين اللامعتين فى الأحداق .

ـ كيف تقول هذا الكلام ؟ أقسم لك أننى لا أترك أى فرصة تسنح لزيارتك ؟

ـ حين كانت صحتى تحتمل السفر ، كنت لا أنتظر قدومك . ويجلسان معا على الكنبة فى صالة البيت ..

ـ لكن قل لى أولا كيف حالك ؟ لم تكتب لى منذ وقت طويل .

ـ لأنى كنت معتزما أن أحضر لأراك .

ـ ياله من سبب مضحك . هل أفهم من هذا أنك ظللت ثلاثة أشهر تفكر فى زيارتى .. ماذا تكلفك كتابة رسالة ؟ حين كانت عيناى سليمتين كنت أكتب لك كل أسبوع .

ـ فى الحقيقة المشاغل تملأ الوقت وحده ولكن قلبى لا يشغله شىء عنك .

ـ متى تعلمت الكذب ؟ لاتصدق أننى أريد أن تشغل نفسك بى أكثر من اللازم ، لكن حين يكون الأمر مجرد رسالة ؟

ـ أعدك ألا أتأخر فى الكتابة اليك ٠

ـ لم أنس بعد وعودك السابقة ٠٠٠ لا تكذب من أجل ارضائى فكر فى طريقة تطمئننى عليك غير الرسائل ، أعفيك من كتابتها ٠

ـ ثق أننى أجد سعادة فى الكتابة اليك ، فلماذا ؟

ـ ها أنت تعود مرة أخرى للكذب ٠

ـ الحقيقة أننى واثق من أنك ستغفر لى ما لا يغفره الناس ، ولذلك أجعل تقصيرى من نصيبك ٠

ـ هذا كلام فيه رائحة الصدق ٠٠ لكنك لم تحدثنى عن أحوالك ٠

ويحس بيده تربت كتفيه فى حنان وكأنه يتلمس بيده اجابة لسؤاله ٠

« هذه اليد النحيلة التى صحبته فى رحلة حياته تعيده بلمستها الساحرة مجرد طفل كان يتوهم أن حاجته اليها ستنقضى حين يشتد ساعده ، ولكنه يحس وهو فى قلب المدينة الكبيرة حيث تبدو الأيدى كلها وكأنما خلقت لتخوض صراعا من أجل شىء أو ضده ٠٠٠ أنه لا تزال هناك فى قريته يدان رقيقتان سوف تلمسانه كما تلمسان أعز الأشياء ، يدان مفتوحتان دائما فى انتظار أن يطرق الباب فى أى ساعة من النهار أو الليل ، لتعيداه فى لحظة الى عالم سحرى ناعم ورقيق ٠٠

ـ لماذا تصمت حين اسألك عن أحوالك ؟ هل تظن أننى لم أعد قادرا على أن أصنع لك شيئا ؟

– لا يا أبى ولكنى أشعر وأنا معك انه لا شىء ينقصنى .

– ألم أقل لك دعك من هذا الكلام ؟ أنا أعرف الأشياء التى تحبها ابنتك وقد أعددتها لها .

« الى متى يظل هذا الرجل يعتقد انه مسئول عنى ؟ ومع ذلك فما أشد ما كان يريحه ذلك الشعور الكامن فى الأعماق بأنه يوجد فى قريته النائية شخص يفكر فيه دائما ، ويحس بأنه مسئول عنه ، شخص يمكنه أن يتحرك رغم أعوامه السبعين مدفوعا بقوة هائلة لو ان مكروها ألم به ، وما أكثر ما استقر فى اعماقه ان هذا المسئول لن يتخلى عنه أبدا وانه سيبقى هناك دائما فى انتظاره ، وما اكثر ما كانت تريحه تلك اللحظات التى يشعر فيها ان الحدود التى تفصل بين أى شخصين فى العالم تتلاشى بينهما ... وتنعدم ... تلك اللحظات التى كان يلمح فيها أفراحه وهى تشرق فى وجه ابيه وأحزانه وهى تسكن عميقة فى تجاعيد وجهه !

فى طفولته وصباه كانت تلك اللحظات هى كل الوقت ... كانت أحاديثه معه تبدو نوعا من حديث النفس ... لا يذكر بالتحديد متى بدأ حديث النفس يصبح حوارا بين اثنين ..

متى بدأت الحدود بينهما ترتفع وتعمق ؟ ربما حدث ذلك فى اللحظة نفسها التى تعلم فيها الكذب كما يقول ابوه ، حين بدأ يشعر بأن فى رأسه افكارا لا يمكنه ان يقولها له ، وان له مسرات قد لا تسعده ، وأحزانا ربما لا تهز قلبه ... منذ تلك اللحظة أصبح العالم الواحد الذى كان يضمهما عالمين ، وارتفعت الحدود راسخة وشامخة ، ورغم ذلك فما كان أشد حنينه الى تلك اللحظات الرقيقة التى تتلاشى فيها الحدود .. لحظات اللقاء فى كل زيارة .

وفى تلك الليلة الغريبة التى بدا فيها السكون العميق ، وكأنه الوجه الحقيقى للأشياء ، احس انه ليس ثمة غير عالم واحد ، وان الحدود التى كان يتوهمها مجرد خداع ٠

وحين دبت الحياة ذات صباح فى الملامح الساكنة ٠٠ أحس انه فى اعماقه فى مكان ما من تلك الأعماق ، سيتم لقاء لا يدرك كنهه ٠٠ ولاغايته ٠ بين ذلك السكون العميق المطلق الذى اصبح جزءا من نفسه ، والذى وقف به ذات ليلة على حدود ذلك الجزء المجهول من العالم ، وبين تلك الحياة النابضة التى لا يزال ابوه يعيشها فى تلك النفس ٠ !

وفى كل ليلة كان يتم هذا اللقاء الغريب ٠٠٠ كان يبصر الملامح الدقيقة وهى تنفعل فتهتز تلك الخطوط التى يحفظ مكانها فى الوجه ويسمع الصوت الواهن المرتعش نفسه ، يردد الكلمات نفسها ٠٠ وعادت احاديثه معه تصبح نوعا من حديث النفس ٠ !

ذات ليلة ، فى الوقت الذى اعتاد ان يلتقى فيه معه ، والظلام يغمر حجرته ، والسكون يغرق البيت كله ، انتظره ٠٠٠ فلم يجىء ٠٠٠ كانت ملامحه تبدو بعيدة وشاحبة ، ولم يسمع له صوت ٠ ! وغمره الخجل ، وامتدت يده تنير الحجرة ، وامتدت عيناه الى ركن تطل منه الصورة التى ندت ملامحها عن رأسه ٠ !

كانت صورة الحائط بدورها ساكنة الملامح ٠٠ وعبثا حاول أن يدفع فيها نبض الحياة ، أن يسمعها تنطق بكلمةواحدة٠٠كانتساكنة ذلك السكون العميق المطلق٠٠٠بجوارها أبصر نتيجة حائط ظل يحدق فى تاريخها ٠٠٠ رأى هذا التاريخ فى صباح اليوم فلم يفهم له معنى ٠٠٠ الآن تذكر أنه بعد أيام قليلة سيحل موعد الزيارة ٠٠٠ كاد ينسى ذلك الموعد ٠ !

ها قد بدأت الخيانة ... دائما تبدأ الخيانات صغيرة وتافهة ، وكأن لم يكن ثمة لقاء بين السكون والحركة . !

كانت موجة السكون قد انحسرت ذات صباح ... أتراهـــا تعاود المد ؟ ورغم ذلك فهناك أشياء لم تغرق بعد ... ربما لأنهـــا لا تغرق أبدا . هناك تلك الصورة المعلقة ، والنتيجة التى لا تخطىء الوقت ، ومكان فى قريته ينتظر الزيارة !

من بعيد لاحت قريته ... لا شىء قد تغير ... مئذنة المسجد ترتفع شامخة فوق النخيل الذى يكاد يخفى القرية ، الجسر الذى لم يعبد بعد ، والمقهى الذى ينتظر فيه المسافرون ... والعيون التى تفحص كل قادم ولو كانت تراه كل يوم .. والرجال الذين لا يكتفون بالتحية من بعيد .. والأطفال الذين يرونه دائما شـــخصا غريبا فيتبعونه ويختلفون فى شأن البيت الذى سيدخله ، ولا يتركونه الا أمام داره .. !

أمام داره ... كان ينتظر أقاربه .

– كل سنة وأنتم طيبون .

– كل سنة وأنت طيب .. البركة فيك . !

وتتصافح الأيدى ، وتبتسم العيون فى فتور ويثقل الصـــمت وتقال كلمات قليلة لا يسمعها بوضوح ... وفجأة يرتفع صوت أحد أقاربه ...

– البلد كلها تزور الآن .. بعد أن تستريح قليلا نذهب كلنا للزيارة ...

***

كانت الجماعة الصغيرة التى بدأت سيرها من أمـــام بيته ،

تجتذب من كل شارع تمر به عددا جـديدا من النـــاس ·· يبدأون بالسلام ثم يواصلون السير ·· مع الجماعة · وحين غادرت الجماعة القرية وانحصرت فى الشريط الذى يشق الأرض الزراعية ، صنعت طابورا طويلا يسير وسط سحابة من الغبار تمتد بطوله ··

من بعيد لاحت الهضبة الرملية التى اختارتها القرية لتنام فيها نومها الطويل ·· وكلما اقتربت الهضبة مالت الخطوات الى البطء ، وهدأ اللغط ، ورقت سحابة الغبار ، واختفت الضحكات التى كانت تصدر أحيانا من الطابور ·

وحين بدأ رأس الطابور يرتفع قليلا فى طريقه الى الهضبة ، والأقدام تغوص فى الرمل الناعم ، كف اللغط ، وساد المكان سكون لا يتضح فيه سوى خفق الأقدام وهى تنتزع من الارض ، وكاد يسمع قلبه وهو يخفق · هضبة السكون تبتلع الطابور فى طرقاتها المتعددة وتوشك رءوس الناس أن تختلط برءوس المقابر ··· وتلوح أشـجار الصبار التى يعجز الهواء عن تحريكها ··· بعد لحظات سيلتقى به ··· فى احدى الطرقات تقدم أحد أقاربه ··· لاحت لعينيه قطعة الرخام الناصعة التى حفر فيها الاسم بلون أسود ··· بدا له الاسم غريبا فى هذا المكان ·· ·الاسم الذى لا يزال يعيش معه ··· يكتبه فى أوراقه ، ويسمعه فى فم الأصدقاء وينادى به ·· الاسم والصورة والنتيجة التى لا تخطىء الوقت وموعد الزيـارة ·· وأخيرا هذا المكان ·· فى هذه الأشياء التى لاتغرق ··· يجب أن يودع ثقته · !

توقفت قدماه أمام قطعة الرخام وتمتمت شفتاه بدعاء ثم ساد السكون ··

« ها قد جئت فى الموعد ··· الموعد الذى كدت أنساه ·· لن

أكذب هذه المرة فأنت تعرف الآن كل شيء ... تعرف نبأ خيانتى لك ، وربما تعرف أكثر لماذا تحدث تلك الخيانات ؟

كنت دائما تكره الكذب فهل عرفت أكاذيبى كلها ؟ هل عرفت كل ما كنت أخفيه عنك حين كنا شخصين لابد لكى نتفاهم من أن يدور بيننا حوار ؟ ها قد أصبح ما بيننا مجرد نجوى خفية ... فهل أصبحنا أكثر تفاهما ؟

واذا كنت عرفت ذلك كله ؟ فلماذا لم تصنع شيئا من أجلى ؟ أى شيء ؟

ألم تكن تضيق بصمتى حين تسألنى عن حالى فلا أرد لهفتك ؟ وكنت تقول لى معاتبا : « هل تظننى لم أعد قادرا على أن أصنع لك شيئا ؟ »

لماذا وأنت تعرف الآن كل شيء تواصل الصمت ؟ هل أدركت الآن أن ما كنت تقدمه لى لم يكن هو كل ما أحتاج اليه ؟

لماذا تصمت وأنت هناك فى هذا الجزء من العالم الذى لم أتعذب بشيء مثلما أتعذب بالرغبة فى أن أعرف لمحة عنه ؟

ذلك الجزء الذى ظللت طوال حياتك تتحدث عنه ، وتحلم به ، وتصلى من أجله وتصفه كأنك تراه .. لماذا تصمت الآن كل هذا الصمت بعد أن أصبحت جزءا منه ؟

هل أصبحت مثله ؟

حين كنت معى .. كنت أعتقد أنه لابد أن يأتى يوم يصبح لى فيه مثل يقينك الرائع الذى كنت أحسدك عليه .. قد أصل من طريق آخر ، ولكنى حتما سألتقى بك .. سألتقى بذلك السلام العميق الذى كنت تنعم به . ! سيأتى يوم يتبدى لى فيه ذلك الجزء من العالم

كاشفا عن سره ... قد يحدث ذلك فجأة ، ولكنه سيكون رائعا مثل شروق الشمس .. ! ذلك الجزء الذى يسوده السكون والصمت ، لابد أن يخرق قانونه ويهمس لى بشىء .

وفى تلك الليلة الغريبة وجدتنى أقف معك على حدود هذا الجزء من العالم وخيل الى ، وقد دنوت منه الدنو المهلك ، أننى سألمس كل شىء ، ستحدث المعجزة ... سيهمس السكون الأبدى بسره .. وفى الصباح الذى نبضت فيه ملامحك وارتعش صوتك ... لم أكن أسمع غير صوت عالمنا ولم أبصر غير صورته . !

وكأن ذلك كله لم يكن سوى مجرد خداع .. قاس رهيب ، وها نحن نتبادل الخيانات ، يا من كنت تحبنى ، ولم نزل شخصين ، وما زال الحوار الأخرس لغة الكون .. ولكنى لن أتخلف أبدا عن زيارتك ... ولن أيأس من صمتك .. فقد تحدث المعجزة يوما وما بيننا من الحب كبير وعميق .. !

***

أحس بيد تلمس يده ... كان أقاربه فى انتظاره .... وكان الطابور قد بدأ يصنع سحابة جديدة من الغبار تتجه الى القرية وتعلن انتهاء الزيارة ..

لقـــاء

دق جرس التليفون على مكتبه ، رفع السماعة دون أن يرفع عينيه عن الكتاب الذى يقرؤه ٠

ـ ألـو !

سمع صوتا نسائيا يرد : ألو ، الأستاذ هاشم أحمد ؟

اختفى الكتاب عن عينيه ٠

ـ نعم ، من يتكلم ؟

جاء الصوت مضطربا : ـ أنت لا تعرفنى ٠٠ لكن مسرحيتك الأخيرة ٠٠ لى بعض تعليقات ٠ أقصد أسئلة ٠ أعتقد هذا من حق أى شخص ٠٠

حاول جاهدا أن يتعرف على الصوت ، نفى ارتباكها فكـــرة العبث ، كما أفقد الصوت ملامحه الطبيعية ٠

ـ يسرنى أن أسمع أى تعليق !

جاء صوتها أكثر هدوءا : ـ فى الحقيقة أنا أتابعك ·· وأذكر أنك فى كل ما تكتب تؤكد أن هدفك الأخير هو الحقيقة !

ـ نعم ·

أحس أن الصوت لم يعد غريبا عليه ، ولكنه لم يعرف بعد ·

ـ فى مسرحيتك يقول البطل لصديقه : « لا تحاول أن تبذل أى مجهود للتخلص من حبها ، فمثل هذه المحاولات لا تنجح الا فى تأكيد الحب ، لا شىء يقتل الحب بنجاح مثل الوقت ، المهم أن يمر الوقت ، ولا يهم بعد ذلك أن تكونا معـــا أو تفترقا · فى الحالتين سيموت الحب ، فى الحالة الأولى سيقتله الملل ، وفى الثانية سيقتله النسيان · »

قال بدهشة :

ـ شىء غريب ·· أنت تحفظين النص !

ـ من طول ما فكرت فيه !

ـ الى هذا الحد أثار اهتمامك ؟

ـ الغريب أننى فى المسرح كنت أصفق مع الجمهور ، لكن حين بدأت أفكر فى المسرحية كلها شعرت بصدمة ·

شغل بحديثها عنها فسأل :

ـ كيف ذلك ؟

قالت : ـ هل تعتقد أنك كنت تلمس الحقيقة هذه المرة ؟

ـ ما الذى يجعلك تشكين فى هذا ؟

مرت لحظات صمت قبل أن ترد بصوت عاوده الاضطراب :

ـ لى تجربة تؤكد أن الوقت وحده لا يقتل الحب !

ـ ربما كانت تجربتك حقيقية وأيضا تجربة البطل !

ـ لا أفهم كيف يكون ذلك ؟

من جديد خيم الصمت ·· صمت زاد خلاله يقينه بأنه يألف هذا الصوت ·

قال :

ـ ليست هناك حقيقة تصلح لكل الناس ، فلكل شخص وأيضا لكل موقف حقائقه الخاصة به !

ـ اذن فأنت شخصيا تؤمن بأن الوقت وحـده لا يقتل الحب دائما ·

تردد للحظات ، لم يكن هذا ما يعتقده ، كاد أن يقـول لهـا بمرارة : « الوقت لا يقتل الحب وحده ولكنه يقتل الناس أنفسهم » ولكنه لم يفعل ، كان يود أن يمنحها أى فرصة للكلام حتى لا ينتهى الحوار معها ، قال :

ـ نعم أعتقد ذلك ·· لكن أليس من حقى بعد هذا الحديث الذى أسعدنى أن أعرف من أنت ؟

أجابت بصوت نم عن فرح خفى ·

ـ لى سؤال آخر أرجو أن تجيب عنه قبل أن أخبرك باسمى ·

ـ تفضلى !

ـ كم سنة تعتقد أنها كافية ليموت الحب ·· أى حب ؟

دق قلبه بعنف ، خشى أن يبدو ذلك فى صوته ، مستحيل أن تكون هى !

لكن سؤالها عن الوقت ، والصوت الذى استرد ملامحه فى نبره الفرح العابرة !

أجاب بحذر وكأنه يتحسس مواقع قدميه :

ـ ليس المهم الوقت فى ذاته ، بل ما يحدث فيه ، ونوع الناس الذين يمر بهم !

للحظات ساد صمت مشحون هذه المرة ، قالت بنبرة تشـــى بخيبة أمل :

ـ لا زلت تهتم بمعرفة اسمى ؟

ـ نعم ٠

ـ لماذا ؟

فوجىء بسؤالها ٠٠ أجاب بعصبية :

ـ أنت وعدت بذلك !

ـ لم أعد واثقة من أن ذلك يمكن أن يسرك !

عصفت برأسه لحظة شك فى أنه ازاء امرأة تعبث به ، فقال بسخرية مزمعا تفجير الموقف :

ـ وهل كنت واثقة قبل ذلك ؟

ردت فى عصبية : ـ أرجوك ٠٠ لا تتعمد اهانتى !

قال بنفس اللهجة : ـ لم أتشرف بمعرفتك حتى أتعمد شيئا !

بعد لحظات قصيرة من الصمت المفعم سمع نشيجا فى التليفون

لم يعد لديه شك فى أنها هى ·· صوت بكائها لم يتغير طوال هذه السنين ، أذهلته المفاجأة ! تحول صوته الى استغاثة :

ـ آسف جدا ، لم أقصد أبدا الاساءة اليك ، أرجو أن تغفرى تسرعى ، لم أتوقع أن ···

قاطعه صوتها المنساب خلال نشيجها المتقطع كأنه اعتراف :

ـ ليست غلطتك ·· لم أكن أريد أكثر من أن أخبرك بأن كلام البطل فى مسرحيتك ليس هو الحقيقة ، وجدتنى أنساق فى الحديث ، اعتقدت أنك ستعرفنى وستفاجئنى باسمى قبل أن أخبرك به ، قلت ربما بقى شىء واحد لم يتغير ، صوتى على الأقل ، كنت واهمة ·· واهمة فى كل شىء ·· أرجوك أن تنسى ما حدث !

ـ مستحيل ·· يجب أن تسمعينى حتى أوضح لك كل شىء ·· ما حدث كان مجرد سوء تفاهم · ثقى اننى كنت أنتظر هذه اللحظة يجب ان نلتقى · هناك أشياء كثيرة لا يمكن ان أقولها فى التليفون ، أرجوك يا (نادية) · لا أتصور أن ينتهى حديثنا بهذه الصورة !

ـ هل أنت واثق من أنك تريد لقائى ؟

ـ كيف تقولين هذا الكلام ؟ سوف تشقيننى اذا أصررت على موقفك ·· ! حياتى لا ينقصها شقاء جديد ·· أرجـوك يا نادية · أرجوك أن تقدرى موقفى !

جاء صوتها مستسلما هذه المرة تشى مقاطعه القصيرة بنهاية النشيج :

ـ لكن أين ومتى نلتقى ؟

ـ أترك لك اختيار المكان والوقت المناسبين !

ـ ... ...

***

من الباب الزجاجى لمحها قادمة ، كان قد سبقها الى الشرفة الهادئة المطلة على النيل فى فندق النهر .. كان ما يخشاه ألا يعرفها لأول وهلة ، فعشرة أعوام ليست زمنا يسيرا فى حياة امرأة أو رجل كان واثقا من أنه سيجد على الأقل شيئا واحدا لم يتغير .. شيئا لا يستطيع الوقت أن يغيره .. عينيها الخضراوين وملامح وجهها الدقيقة المرشقة ، وشعرها القصير الناعم ، قابلها فى منتصف الطريق كان يخشى أيضا ألا تعرفه بالسرعة نفسها .. تلاقت نظراتهما قبل أن تلتقى يداهما ، دب فى أعماق العيون احساس واحـــد بالفرح المشوب بالخوف .. وحين التقت أيديهما بدوا كأنهما يتشبثان بهذه الأيدى .. سارا متجاورين ، قال دون أن يترك يدها :

ـ لا أصدق عينى .. !

ـ لمعت فى عينيها ابتسامة سعيدة راضية ، جلسا متقابلين ، مضت لحظات صمت لم يقو كلاهما على خدشها ، حين مر النادل بجوارهما بدا كمنقذ أشار اليه ونظر اليها .. همست :

ـ عصير برتقال !

قال محاولا أن يلتمس موضوعا :

ـ لا زلت تحبينه .. !

قالت وهى تبتسم ابتسامة مداعبة : ـ حب البرتقال لا يتأثر بالوقت !

قال محاولا تغيير الموضوع حتى لا يواجها منذ البداية بمأزق :

ـ كنت خائفا !

ـ من أى شىء ؟

ـ ألا تحضرى !

ـ فى الحقيقة ترددت ٠٠ لكـن خشـيت ألا تفهم حقيقـة دوافعى ٠ !

ـ طول عمرك كنت اعظم مترددة !

ومضت فى العينين الخضراوين نظرة عتاب ٠٠ احس أنـه لم يكن لبقا ٠٠

فكرت هى أنه سيبدأ المحاكمة ، هى التى سعت بقدمهـا الى القفص ، ولكن هذه الفكرة أراحتها قليلا : فمعناهـا انه لا يـزال يحبها !

قالت : ـ أهكذا تكون البداية ؟ أتعرف أنك قد سمنت كثيرا جدا !

سره أنها القت اليه بهذا الطوق بقدر ما ضايقته ملاحظتها ٠ قال بنبرة فشل فى أن يكسبها روح المرح :

ـ شأن المحكوم عليهم بالاعدام !

صدمتها اجابته وأراحتها فى الوقت نفسه !

ـ ألست سعيدا فى حياتك ؟ ٠ لقد تحققت لك آمال كثيرة ٠

ـ من المؤكد اننى سعيد جدا فى هذه اللحظة !

قالها بلهجة يختلط فيها الصدق بالمجاملة ٠٠ ! ومن جديد ساد الصمت ٠

وبدا الصمت أكثر حيوية من كل ماتورطـا فيه من كلمات ، واقبل النادل لينقذها بعصير البرتقال الذى راحت ترشفه على مهل

فكأنها تلتقط انفاسها بعد أول جولة ! لاتكاد تصدق انه هاشم أحمد الذى كان يتقد حماسا وتفاؤلا وهو لا يملك سوى سترة واحدة طوال سنوات الكلية ، سترة يؤكد اتساعها أنها لم تكن له أبدا ، وتبرز نحافته كأهم صفة له ، أيامها كان يتكلم بثقة هائلة ، كأنه يمتلك العالم ، كانت تفتنها ثقته التى لا حدود لها ، تلك الثقة التى لم تهتز الا مرة واحدة يوم أن رفضه ابوها حين تقدم لخطبتها بعد التخرج ، لأول مرة رأته بعينيها يبكى ·· الشاب الذى كان لا يتحدث الا عن مشاكل العالم بأسره كأنه هو بلا مشكلات ، والذى كان يخطب فى الجامعة فتنغرس آلاف الاقدام فى الأرض ولا تبالى الوجوه بوهج الشمس ولا بروائح العرق ·· كان يبكى ليس لأن أباها رفضه بل لأنها هى ·· هى التى كان يراها دائما أجمل جزء فى هذا العالم الذى يعنى به ·· لأنها ترددت أمام رفض أبيها ولم تقف الى جواره !

لقد ظلت هذه اللحظة تطاردها طوال عشرة أعوام ، تطاردها خلال كل المباهج التى كانت تملأ حياتها ، وتفسد عليها كل محاولة للنسيان · ودون أن تدرى وجدت نفسها تطارده ، تطارد اخباره وأفكاره ، وأصبحت هذه المطاردة لعبتها الخاصة المفضلة ، وأحيانا كانت تضيق بهذه اللعبة ! وتفكر فى لقائه ، ولكنها لم تجرؤ يوما على تنفيذ هذه الفكرة ، كانت تتمنى أن يحدث هذا القاء مصادفة فلا تتحمل وحدها نتيجة الفشل الذى كانت تخافه · وحين شاهدت مسرحيته الأخيرة ازدادت خوفا ، وأصبحت لها شجاعة الخائفين ، وها هى ذى وجها لوجه أمام هاشم أحمد ، آخر ، أنيق جدا وغامض جدا ، وكئيب رغم كل المحاولات ، وكوب البرتقال الذى أنقذها منذ لحظات يوشك ان يفرغ ، والصمت الملىء بالحيوية يفتر ، والوجه الممتلىء الغامض يجتذبها اليه بقدر ما يخيفها منه ·

قالت له :

ـ منذ شهور رأيت صورة ابنك فى التحقيق الذى نشرته مجلة « النجوم » عنك · وبالمناسبة أتعرف ان زوجتك جميلة جدا ؟

ـ أشكرك ، وان كنت لن أستطيع ان ابلغها شهادتك !!

هل جاءا ليتبادلا المجاملات السخيفة ؟ ماذا تخاف بعد ان جاءت الى هنا بقدميها ؟ لا تفجر الموقف حتى يبدو كل شىء على حقيقته ؟ قالت :

ـ يبدو أننى احرجتك بهذا اللقاء !؟

أجاب كالمسوع : ـ كيف تقولين هذا الكلام ؟ انا الذى رجوتك ·· !

ـ ربما لم تكن فى حاجة الى لقائى ؟

ـ لم أكن محتاجا لك كما انا اليوم !

وامتدت يده تلمس يدها فى رفق وحنان ، قالت وهى تسلمه يدها :

ـ ألست سعيدا فى زواجك ؟

أجاب دون تفكير : ـ هل تعتقدين أنه يوجد زوج سعيد ؟

ـ تعنى اننا لو تزوجنا ·· ؟

ـ ليس هذا ما أعنيه بالضبط ·· ! لكن احيانا يخيل الى ان الزواج نظام مفيد لجميع الناس عدا الزوجين !

سحبت يدها من يده برفق لتفتح حقيبتها ثم تقفلها بلا هدف ·

ـ انت تتكلم مثل البطل فى مسرحيتك :

ـ وما رأيك فى بطل المسرحية ؟

ـ انه الرجل الذى اكتشف فجأة زيف كل شىء كان يسعى اليه بعد أن وصل اليه !

ـ هل تنكرين مثل هذه الشخصية ؟

ـ أنكر فقط أن تكون شخصيتك !

ـ التى كنت تعرفينها !

ـ لا زلت تكرر كلام البطل ، لقد تغيرت كثيرا ، كانت ثقتك بما تبحث عنه لا حد لها !

أحس فى هذه اللحظة أنه يحبها الى الحد الذى لا يقوى فيه على خداعها · كان هذا الاحساس مفاجئا له ·· قال وهو يحاول من جديد أن يلمس يديها :

ـ وهكذا تصبح خيبة الأمل لا حد لها كذلك !

قالت وهى تسلم يديها له :

ـ ألم تجد فى كل ما وصلت اليه شيئا واحدا حقيقيا ؟

ـ هناك شىء واحد حقيقى !

ـ ما هو ؟

ـ الحب !!

ـ أى حب ؟ الذى يقتله الوقت !!

قال وقد أصر على أن يكون صادقا مع نفسه ومعها :

ـ الحب الذى يلغى شعورنا بالوقت !!

ـ لهذا الحد أصبحت الحياة فى نظرك ؟ ماذا جرى لك ؟ كنت أتصور أننى سأجد لديك كل ما أفتقده فى حياتى !

ـ لم تحدثينى عن حياتك !

ـ تزوجت منه ..

ـ شريف ؟

ـ نعم .

ـ كان يعرف علاقتنا جيدا .

ـ ربما كان هذا أحد الأسباب ، كان زواجه بى النصر الوحيد الذى أحرزه ضدك ! لقد تقدم الى أبى فى عربته « البويك » فلم يعترض شىء طريقه .. ! وفى الحقيقة حاول اسعادى بكل قوة .. لكن ..

ومالت بعنقها جهة النهر حتى تتجنب نظراته فى تلك اللحظة ، فأبصر عنقها الرائع ، وسحب عينيه فوق الجسد الذى اكتمل أنوثة وحيوية وانتهز الفرصة ليمد يده ويلمس برفق خدها الرقيـــؤ .. لتعود اليه العينان الخضراوان ..

ـ لماذا اذن تنكرينني ؟

ـ يبدو أن أسباب شقائنا تختلف !

ـ أنا الذى أصبحت لا أفهمك .

ـ هذا يؤكد كلام بطلك عن الوقت !

ـ ثقى أننى فى حاجة اليك أكثر من أى وقت مضى !

ـ أصدقك .. لكن هل كنت تتوقع أن أتصل بك ؟

ـ أنتظرك الى حد اليأس .

ـ ثم نسيت كل شىء !

ـ هذا ما كنت أعتقده ٠

ـ وأنت تكتب مسرحيتك ٠

ـ صحيح ٠٠

ـ وفجأة وجدتنى فقلت ٠٠

ثم صمتت وسرحت بعينيها من حديد ناحية النهر ٠

ـ لم أقل شيئا ، لم أحاسبك على أنك لم تحاولى الاتصال بى قبل الآن ٠

ـ وهذا بالتحديد ما يفزعنى !

ـ لم أشأ أن أحرجك بمثل هذه الأسئلة !

ـ ليتك أحرجتنى !

قال بيأس هائل : ـ لماذا تفسدين كل شىء ؟ أقسم لك أننى احتاجك جدا ، أنت تبعثين روح الماضى كله فى نفسى !

عادت تنظر اليه ، ومضت فى العينين الخضراوين نظرة ارتجف لها كل كيانه وقالت :

ـ الماضى ٠٠ ليت كلامك يكون صحيحا ! كنا نسير على هذا الشاطىء ، يومها لم يكن بهذا الجمال ٠٠ ولكنى كنت أراه أجمل مكان فى العالم ، كنت لا تطيق ان أدعوك لنجلس فى شرفة أحد الفنادق ، كنت تقول لى : مكاننا بين الناس الذين يسيرون على أقدامهم ، كنت تفضل أن تصل الى جميع أهدافك على قدميك ، كان كل شىء بالغ الروعة ، ولم أدرك معنى ذلك الا بعد أن فقدتك ٠٠ لم أجد فى كل ما حصلت عليه ما يعوضنى عن حماسك القديم وثقتك التى بغير حدود ٠٠ !

ـ سنلتقى دائما ، وثقى أننا سنلتقى أيضا بحماسنا القديم ٠ أنت تبعثين الروح فى كل شىء !

ـ هل تعنى ما تقول حقا ؟ لكن كيف ؟ هل تتصور أنه يمكن أن نلتقى فى مثل هذا المكان والمجتمع كله يعرفك ، وبعد قليل يتحدث عن السيدة التى ٠٠

ـ طبعا لم أفكر لحظة فى أن أعرضك لشىء كهذا !

ـ كيف اذن نلتقى ؟

ثم أضافت وعيناها تسبران أعماقه :

ـ هل ستقدمنى لزوجتك وأولادك ؟

ـ لماذا تأخذين الموضوع بسخرية ؟ طبعا أنا لا أكتب أو اقرأ فى بيتى الذى يضج بالأولاد وأصدقائهم وضيوفهم ٠٠

ثم تابع بلهجة حاول أن تكون طبيعية :

ـ لى شقة خاصة هادئة ، ويمكن أن نلتقى فيها !

احست أن شيئا ينهار فى داخلها فجأة ، وبذلت جهدا خارقا لتحبس دموعا كادت تنفجر فى عينيها ٠٠ !

قالت وهى تغتصب ابتسامة باهتة :

ـ أنت تعمل حساب كل شىء ٠٠ كنت عند حسن ظنى تماما !

احس أن الزمام أفلت من يده ٠٠ قال بيأس :

ـ لماذا تفسدين الأمور ؟ كلانا فى حاجة الى الآخر ! لماذا ٠٠

قاطعته بلهجة غريبة :

ـ حين كنت نحيفا كنت جذابا ، ما الذى جرى لك ؟ سمنت أكثر مما ينبغى !

ثم تابعت باللهجة الغريبة نفسها :

ـ لم تقل لى كيف ترانى بعد هذه السنين ؟

قال وهو يقاوم رغبة حادة فى الانفجار متعلقا بأمل واه :

ـ الايام زادتك روعة ..!

وبقوة اليأس مد يده ليلمس يدها فى حنان ورقة وقال :

ـ الحياة ليست كريمة الى الحد الذى يجعلنا نتردد أمام القليل الذى تعطيه !

ـ هذا ما أصبحت اعتقده الآن فقط !

ـ سنلتقى اذن ! قولى انك ستأتين !

ـ أين ؟ نسيت انك لم تخبرنى بعنوان شقتك الهادئة .

قالت هذه العبارة بلهجة مضللة .

ودون تفكير أخرج من جيبه بطاقة كان قد كتب عليها العنوان بخط يده وقدمها لها . ارتسمت على شفتيها ابتسامة شاحبة ، فقالت وعيناها على البطاقة .

ـ كان كل شيء معدا ، لم تفقد أبدا ثقتك العظيمة بنفسك كما توهمت !

قال وقد دهمته المفاجأة .

ـ لماذا العجلة ؟ لم نكد نلتقى ! ؟

قالت بلهجة بدت خالية من أى معنى :

ـ أمامنا فرص طويلة فى شقتك الهادئة !

فتحت حقيبة يدها بعد أن تحرك بها التاكسى الذى ركبته من أمام الفندق ..

وراحت تقرأ العنوان .. وفجأة بدأت الحروف تذوب أمامها وتختلط وتغرق ...

فكرت انها لو لم تقابله الآن لظلت أعواما أخرى وربما بقية حياتها تنتظر هذه اللحظة وتحلم بها . واعتصر قلبها الأسـى : ليتها لم تحاول ذلك .. كان على الأقل سيبقى لها حلم واحد جميل ولو كان وهما .. ! ومزقت البطاقة الى قطع صغيرة ألقتها من نافذة العربة !

أما هو ، فقد آثر المشى على قدميه حتى يهدأ .. كان واثقا من أنها لن تحضر ورغم ذلك فقد استراح قليلا لأنها وضعت البطاقة فى حقيبتها .. ربما بعد أن تفيق من الصـدمة .. وبعد أن تسـترد صوابها .. تطرق يوما باب شقته الهادئة .

العودة من المنفى

أول وجه أبصر عليه الموضوع الذى كان يعتقد انه لا يزال سره المضنى كان وجه (فريد) . كان قد دخل لتوه .. وبـــدلا من ان يجلس الى مكتبه سحب كرسيه ودنا منه ، ومع أنه لـم يكن آنذاك سواهما فى الحجرة فقد مال على أذنه ليسأل بصوت هامس :

ـ ماالذى حدث منك مع (نوال) ؟

أحس (رشاد) ان قلبه يتحرك فى مكانه ومضت لحظات قبل ان يقول :

ـ ومن أخبرك ان شيئا ما قد حدث ؟

ـ الشركة كلها تتكلم عن الموضوع .

ـ أى موضوع !

حدق فريد مستنكرا ، قال وهو يتجنب النظر فى وجه رشاد :

ـ يقولون انك كنت تبحث عن احد الملفات القديمة التى تشرف (نوال) على تنظيمها فى الدور الأرضى ، ولـــم يكن هناك غيركما وأنك طلبت منها ان تساعدك فى البحث ثم ...

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم حاولت تقبيلها وأنها صدتك .

ـ لكن هل (نوال) هى التى قالت ذلك ؟

ـ يقولون انها قدمت شكوى للمدير .

أحس (رشاد) بأنه يفقد قدرته على ان ينطق بكلمة واحدة ، وخيم صمت ثقيل اختلط خلاله وجه فريد بكل ما فى الحجرة من أشياء .. بدت وكأنها فقدت صلابتها فجأة .. قال فريد محاولا تهدئة الموقف :

ـ ماذا جرى لك ؟ طبعا لم اصدق هذا الكلام لكن فقط أردت ان أعرف ما الذى دفعها الى ان تختلق هذه الأكذوبـــة عن شخص مثلك ..

قال رشاد وقد استرد نفسه :

ـ هذا ما يحيرنى ... لكن هل الجميع مثلك لا يصدقون هذه القصة أم أنهم ..

ـ فى الحقيقة الموضوع محير ، فمع انهم يستبعدون ذلك منك بالذات .. فهم لا يفهمون مصلحتها فى ان تثير حـــول نفسها هذه الضجة اذا لم يكن هناك ...

ـ اذن فالجميع يصدقونها ، وربما انت أيضا .

قال فريد متجاهلا مقاطعته :

ـ ألم يحدث بينكما شيء ٠٠ خلاف مثلا ؟

ـ لا ٠

ـ ليس من مصلحتك ان تقول هذا لو حققوا معك ٠

ـ تريد ان أدعى أن بيننا خلافا ؟

ـ وما المانع ٠ اذا كانت هى تدعى عليك شيئا لم يحدث ؟

من جديد ساد صمت مشحون ٠٠ ولأول مرة بدأ رشاد يلمح فى عينى فريد نظرة شك قاتلة ٠٠ قال فريد كأنما ليضلله عن قراءة هواجسه :

ـ أنت تعرف أننى فى صالحك ٠٠٠ وما دامت الحقيقة ان شيئا لم يحدث فلماذا ٠٠ ؟

وصمت فريد ٠٠ من تلقاء نفسه ٠٠ وكأنما ادرك فشل المحاولة أو سذاجتها ٠٠ كانت ملامح وجهه الأسمر تتحول الى علامة استفهام كبيرة ٠٠ وكان يغالب ابتسامة وقحة تنبض فى أغوار عينيه الضيقتين ٠٠٠ بالشك ٠٠

ومنذ تلك اللحظة ونظرة الشك هذه تطالع رشاد فى جميع العيون التى يلتقى بها رغم محاولات التمويه الفاشلة التى تبدأ بالسؤال عن صحته ، أو عن شيء يتعلق بالعمل ، ولكنها تنتهى دائما بالسؤال عن الموضوع الذى بدا وكأن مجهولا اصدر للجميع أمرا يود أن يحققوا فيه ، كل على طريقته ، وبدا كأن الجميع يدينون لذلك المجهول بولاء غريب ، فلم يتخلف شخص واحد عن أداء هذا الواجب ٠ ولأول مرة أصبح للجميع القدرة على ان يؤدوا عملين فى وقت واحد ليس فقط دون ضجر بل وبمتعة هائلة ٠٠ فى هذا اليوم كان الحديث عن موضوع « رشاد » يتخلل اكثر الأعمال تعقيدا وحاجة الى التركيز ، كما نجح فى التقريب بين فئات الموظفين فى

الشركة ، وذابت ثلوج الجفاء التى كانت تفرض الصمت احيانا بين العاملين فى حجرة واحدة ٠

على ان « رشاد » كان يجد بعض الراحة لدى هؤلاء المحققين الذين تتحول نظرة الشك فى عيونهم الى كلام من اى نوع ٠ كان على الأقل يجد الفرصة ليدافع عن نفسه ٠٠ أى دفـــاع ٠ كما كان يستريح لتكذيبهم الذى لم يكن يشك فى كذبه ، أما هذا النوع الآخر من المحققين الذين لم تكن تربطه بهم علاقة تسمح بأن يفاتحوه فى الموضوع ، فقد كان يشعر ان عدم استماعهم لاقواله لـم يجعلهـــم يترددون لحظة فى ممارسة هذا الواجب !

كان ما يعذبه ان دخوله المفاجىء لاحدى الحجـرات أو حتى مروره فى الصالة لأى عمل يفرض هدنة طارئة على هذا النوع من المحققين ، فالهمس ينقطع فجأة ، والرءوس المتقاربة تتباعد ، والعيون تتحاشاه او ترمقه فى سخرية ٠٠٠ والضحكات تشيعه أحيانا فى خفوت دون ان يكون فى مقدوره ان يعترض ٠٠ أو يتكلم ٠

وفى نهاية هذا اليوم وجد نفسه عاجزا عن مغادرة مكتبـه هربا من هذه العيون الكثيرة التى تصنع سلسلة من الدوائر اللامعة تصيبه بالشلل ٠٠ كان يتوقع بين لحظة وأخـــرى ان يدعوه المدير ليحقق معه ٠ ولكن الساعة بلغت الثانية مساء دون ان يدعوه أحد فاستراح قليلا ، لم يكن خائفا من المدير فهو يعرف أن المدير يثق به وانه ربما لا يصدق شكوى « نوال » ولكنه كان مستريحا لأنـــه وجد الفرصة ليلتقى بصديقه حسين الذى يعمل فى الدور الثالث من الشركة والذى لا يشك فى انه عرف الآن بالموضوع ٠ وان كان لـم يفاتحه فيه ٠٠

ـ ما الحكاية ٠ ؟

ألقى « حسين » بهذا السؤال وهو يقدم لرشاد أول سيجارة يدخنها فى حياته ٠٠ ولأول مرة لم يرفض رشاد ٠ كانا قد جلسا فى أول مقهى صادفهما بعد ان خرجا من الشركة ٠٠

قال رشاد وهو يسعل :

ـ قل أولا ما رأيك فيما سمعته اليوم ، أعـــدك بأن أخبرك بالحقيقة كاملة ، لكن عليك أولا ان تقول رأيك ٠

ـ طبعا لا أصدق حرفا واحدا منها ، فأنا أعرفك اكثر ممـا تعرفك أمك ، لكن ما غرض نوال من هذه الفضيحة ٠ ؟

ولأول مرة خيل الى رشاد أن نظرة الشك التى ظلت تطارده اليوم تطل من عينى حسين ايضا ، قال فى مرارة ٠

ـ يظهر أنه لا أمى ولا أنت تعرفان شيئا ـ وسأكون صريحا لأن رأسى سينفجر لو لم أفعل ذلك !

ـ ما تعرضت له اليوم لا يتحمله أكثر الناس صفاقة ، ولكن شخصا مثلك يمكن أن يجن !

ـ صدقت ، اليوم لمست الجنون بيدى ، أتعـــرف كيف يجن شخص ؟ حين يكشف فجأة أن ما كان يظنه حقيقيا ، هو لا شىء !! ٠

ـ أليس من الأفضل أن تخبرنى بحقيقة ما حدث ؟

ـ يبدو أنك جننت فعلا وانتهى الأمر ٠

ـ أرجو أن تصدق كل كلمة أقولها ٠

وضع النادل أمامهما قدحين من القهوة وانصرف ٠٠ أطفأ رشاد السيجارة قبل أن يقول :

– منذ وقت طويل وأنا أخفى عنك وربما عن نفسى حبى « لنوال » ٠

شهق حسين : – مستحيل ٠٠

– وعدت بتصديقى !

ثم استطرد قائلا :

– كنت أسمع منك ومن غيرك أخبار الغزوات الفاشلة التى تستهدف « نوال » كنتم دائما تتحدثون عنها كلغز وكقلعة حصينة ، وكان حديثكم يعذبنى فى الوقت نفسه !! وذات يوم نزلت أبحث عن ملف قديم ، وكان « اسماعيل » الساعى يضع أمامها فى اللحظة نفسها قدحا من القهوة فأصرت على تقديمه لى وطلبت غيره ٠ طبعا لم يكن لهذا فى ذاته أى معنى ولكن حين جلست معها اكتشفت – أو هكذا خيل لى – أنها ليست لغزا أو قلعة ٠ كانت تتحدث معى فى بساطة وفى سحر ، وأهم من هذا أننى اكتشفت أننى لست مصيبة فى الحديث مع البنات كما كنت أتصور–!يومها تحدثنا عن الأفلام والكرة مع أننى لا أعرف الكثير عن الكرة بالذات – المهم أن هذا اليوم كان نقطة تحول فى ادراكى لها وأيضا لنفسى !

– طيب خذ هذه السيجارة ، ولو أنك لا تستحق سوى الحرق بها !

– كانت تلك هى البداية ، وفى كل مرة قابلتها بعد ذلك فى الصالة أو على السلم أو حتى فى الطريق ، كنت أحرص على تحيتها ٠٠ وكانت تحيينى برقة ومودة زائدتين ٠٠٠ وفى كل مرة نزلت فيها الى قسم المحفوظات كانت ، تطلب لى قهوة ، ويتكرر الحديث عن الكرة والأفلام وأحيانا كنا نتكلم فى السياسة ٠ وأروع ما اكتشفته

أنها مثلى تقرأ توفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ · المهم ان كلا منا حتى هذا اليوم الملعون ، كان دائما يأخذ صورة جادة وكأننا كنا نتبارى فى هذا !

ـ أفضل أن تحدثنى عما حدث فى اليوم الملعون ··

ـ فى هذا اليوم لم أجد الملف الذى كنت أبحث عنه !

انفجر حسين ضاحكا وقال :

ـ عميت عنه أم تعاميت ؟

ـ المهم أنها جاءت لتبحث معى عنه ··· أنت تعرف أن المحفوظات تشبه بيت جحا · مليئة بالدواليب التى تزحم طرقاتها الضيقة ·· ووقفت بجوارى ·· هل تعرف أن الأمر يختلف حين تقف بجوار امرأة عنه حين تجلس بجوارها ؟

استمر رشاد فى حديثه : ـ فى الحالة الأولى تشعر أنها أقرب اليك ·

قال حسين ضاحكا :

ـ أصبحت فيلسوفا فى الحب أيضا ·

استمر رشاد فى حديثه :

قلت لها : سأتعبك معى ·

قالت باسمة : ليس تعبا شديدا ·

كانت تبدو رائعة وهى تقف على أطراف قدميها لتبحث فى أعلى رف من الدولاب ·

قالت : لا أحد ينظف هذه الدواليب وفى كل مرة أبحث عن

شىء يقوم فستانى بذلك ·· تصور أننى أغير كل يومين فستانا لهذا السبب ·

قلت وقد أعدانى مرحها :

ـ فهمت الآن لماذا يتعمدون ذلك ؟ وأعتقد أنهـــم محقون فى هذا ·

قالت ضاحكة : لو كنت تدفع ثمن هذه الفساتين وثمن تنظيفها لما قلت هذا !! ، كنت لا أتردد فى أن أقطعه على مهل · قلت لها بدون تفكير : ليس أحب الى من أن يصبح هذا من حقى يوما !

لم تجب ·· تضرج وجهها كتفاحة ناضجة ، وتسلل عطرها الى رأسى كمخدر ·

قالت : اذا لم يكن الملف هنا فلابد أن أحدا لم يعده الى مكانه ·

أحسست أن الفرصة لا ينبغى أن تفلت ، وأنها يجب ألا تفهم كلامى كشىء عابر ·

ـ تستعجلين خروجى ؟

عاد وجهها يحترق ··

ـ ألست تريد الملف ؟

ـ كان يمكن أن أرسل فى طلبه مع أحد السعاة ·

بدت كما لو أنها فوجئت ·· ولكن عينيها السوداوين عكستا فرحا حقيقيا بهذه المفاجأة ·· أقسم لك أننى لست واهما ، قلت وأنا أحس أن الموقف لم يعد يتحمـــل تراجعـــا ، لا أدرى كيف راقتنى الشجاعة ·

ـ أحبك ، وأود أن أعرف حقيقة شعورك ··

لم تجب ، ولم أشعر أننى فى حاجة الى كلمة منها ، كانت كلها قد أصبحت تلك الكلمة التى انتظرها ، وجهها المطرق ، أصابعها التى تتشابك وتفترق ، أهدابها التى ترتعش كأنما تحاول عبثا أن تغطى بها جزءا تعرى منها فجأة ، أنفاسها التى تلاحقت وفرضت الصمت وأصبحت فى لحظة أسعد مخلوق ٠٠ !

أعرف أنك تتهمنى بالجنون والحمق ، وهذا ما أعتقده الآن مثلك ، ولكنى أرجو أن تصدق أن كل ما أحكيه لك قد حدث كمـــا رويته ٠٠٠

لقد شعرت أنها أصبحت لى دون كلمة ومع ذلك لم أفعل سوى أننى مددت يدى ورفعت رأسها المطرق لأرى عينيها الجميلتين فى تلك اللحظة النادرة ٠٠ !

وبلا شعور سقطت يدى الأخرى على كتفها ، لا زالت أصابعى تحس ملمس فستانها الحريرى ، وأصبعى هذا لمس عنقها ٠٠٠ فوجئت باستسلامها الرائع ٠٠ تصورت أننى لو قبلتها لما حدث شىء ، فكرت أنها ربما تنتظر هذه الخطوة الرائعة ، فجأة وقبل أن يحدث أى شىء وجدتها تنفلت منى قائلة بصوت مرتفع :

ـ ما هذا ؟ أرجوك أن تخرج اذا لم يكن لك طلب هنا ٠ !

وتقدمتنى جهة الباب الذى يصل بين مكتبها وبين المحفوظات، والذى كان مفتوحا فى الوقت نفسه ٠

أقسم لك أن هذا هو كل ما حدث ، وحين خرجت وراءها كانت قد غادرت مكتبها أيضا ٠٠ !

ورغم أن هذه كانت أفظع صدمة تلقيتها فى حياتى ، فقد كنت مستعدا لأجد لها أى تبرير ٠٠ ولكن حين يصبح هذا حديث الشركة

كلها ، وان تقدم به شكوى للمدير ، فهذا ما يقتلنى ويقتل أى عذر كان يمكن أن أفكر فيه . هل يمكن أن تكون هناك حادثة أفظع من تلك ؟ أن يكتشف المرء أن حواسه وعقله قد خدعاه وغررا به . !

فى لحظة واحدة تكون أسعد وأتعس مخلوق . لماذا تصمت ؟ هل يمكن أن تفهم شيئا مما حدث ؟

– الأمر بسيط للغاية ، كانت تجاملك لسمعتك الطيبة فى الشركة ، وطبعا سرها اهتمامك ، أى فتاة تحاول سرقة اهتمام الناس بها كلهن يجدن هذه اللعبة ! ولعدم خبرتك لم تفهم ذلك ، وحين تجاوزت حدود اللعبة كان لابد أن توقفك عند حدها .. !

– اذا كان كلامك صحيحا ، فأقسم أننى أبأس انسان فى العالم .. !

– كنت ستكون هذا الشخص لو أن أحدا راكما ، وقتها كانت شكواها تهدد مستقبلك . أما الآن فاتهامها وحده لا قيمة له وشكوك الآخرين ستتلاشى يوما .

– لا أتحمل يوما آخر فى الشركة هكذا ، سآخذ اجازة من الغد . !

– بهذا تثبت التهمة على نفسك . ! ويجب ان تنتظر تصرف المدير ، مادام لم يرسل لك اليوم ، فهو يأخذ الموضوع بخفة لما يعرفه عنك وعنها ..

– ماذا يعرف عنها .. ؟

– ما لا تعرفه أنت ..

– كلام فارغ .

ـ لا زلت تحبها أيها المجنون · قم فقد مت جوعا ·· !

فكر وهو يسير مع حسين أنه ما كان ينبغى أن يصارحه بكل شىء ، فهو ليس محايدا ··· وربما كان يخفى حبها ، ولكن هل كان بمقدوره ألا يفعل ؟

***

فى اليوم التالى طلبه المدير ، بدأ بسؤاله عن أشياء تتعلق بالعمل وفجأة قال له ···

ـ ما حكاية نوال هذه ؟ لقد فوجئت بها تماما ·

ـ وكذلك بالنسبة لى · !

ـ ألم تذهب الى قسم المحفوظات ؟

ـ بلى ··

ـ لماذا طلبت منها أن تساعدك فى البحث ؟ ·

ـ لأننى لم أجد الملف ·

ـ هذا كل ما حدث ؟

ـ نعم ··

ـ لولا أننى أعرفك جيدا لما تركت أمرا كهذا يمر بسهولة وان كنت لا أفهم لماذا تتهمك بالذات ؟

ـ الله وحده يعلم ·

ـ أنت تعرف مدى ثقتى بك ، ولهذا فسأحفظ الموضوع ، لكن عليك أن تحافظ على هذه الثقة ·

ـ أشكرك ··

لم يكد خبر حفظ التحقيق ينتشر فى الشركة حتى استأنف المحققون الآخرون نشاطهم وكأنما خشوا أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، واتسعت دائرة التحقيق هذه المرة حتى شملت المدير نفسه وموقفه ٠

وفى اليوم التالى ذاع فى الشركة أن نوال أخذت اجازة مرضية ، وعلى الفور رأى المحققون فى هذه وثيقة جديدة تضم الى أوراق القضية وراح كل واحد يفسر الوثيقة على طريقته ٠٠ وأحس « رشاد » أن موقف المدير منه لم يحرره من هذه الدائرة اللامعة التى تصنع سلسلة متصلة الحلقات تمتد فى كل مكان يذهب اليه ، وتحوله الى جزيرة مهجورة ، أو منفى صغير ٠٠ يتحرك بحركته ، وكأن هؤلاء المحققين قد أصدروا حكمهم ـ فى هذه القضية التى لا يوجد فيها دليل واحد ـ بالسجن ونفذوه بالفعل ٠ حتى صديقه حسين كان يشعر انه هو الآخر يقف خارج المنفى الصغير الذى يتحرك بحركته ٠ ومع أنه كان الوحيد الذى يملك دليل ادانته فقد كان الوحيد الذى يعطف عليه !

فى اليوم الرابع طلبه المدير ٠٠٠ وقال المدير دون أن يدعوه للجلوس :

ـ يبدو أن حكاية نوال حقيقية يا أستاذ ٠ ؟

ـ كيف ؟ ٠

ـ أخبرنى (اسماعيل) الساعى أنه راكما ٠

ذهل رشاد ، كاد أن يقول له : « لم يكن معنا أحد » ولكنه استدرك قائلا :

ـ لا أفهم شيئا ٠٠ ماذا قال ؟

ـ قال انه دخل مكتب نوال ليأخذ أكواب الشاى الفارغة فلم يجدها فى مكتبها ٠ انتظر قليلا ليأخذ حسابه فسمع حديثكما فى

المحفوظات · واتجه ناحية الباب الموصل للمحفوظات · ولكن يبدو أن نوع الحديث سمره فى مكانه بجوار الباب،من هذا المكان أبصركما فى زجاج الدولاب الموجود بالمدخل ، قال · !

لم يعد رشاد قادرا على أن يتابع كلام المدير ·· ومض فى رأسه خاطر كالبرق وكأن الفجر ظهر فجأة فى منتصف الليل ، فبدا كل شىء واضحا ورائعا · لحظتها كان ظهره جهة الدولاب الذى يحفظ مكانه جيدا وكان وجه نوال قبالته · لاشك أنها أبصرت عم اسماعيل كما أبصرها فى الزجاج نفسه ، ولا شك انها فوجئت بموقفه المتلصص فلم يكن أمامها سوى أن تفعل ما فعلت حتى لا يسبقها اليه ·· نوال تحبه اذن ·· وحواسه لم تخدعه أبدا ·· وكل ماحدث يمكن علاجه ·· وليذهب شاهد الاثبات ومعه جميع المحققين الى جهنم ·

أفاق من حلمه الوردى على صراخ المدير :

ـ لماذا تقف هكذا لا مباليا كأنى لا أحدثك ·· قبل أن نجد دليلا ضدك كنت تذوب خجلا ، والآن تبدو وكأن شيئا لا يهمك ·

« طبعا لا شىء يهمنى حتى ولا صراخك المضحك ما دامت نوال تحبنى ·· وما دامت حواسى لم تخدعنى فلا شىء يقتل المرء غير هذا » ·

ـ « طبعا كل شىء صحيح وحقيقى » صمتك يؤكد ان كل شىء صحيح ·

ـ لا تريد أن تدافع عن نفسك ؟

ـ أريد أن أعرف لماذا تأخر عم اسماعيل فى الادلاء بشهادته حتى اليوم ؟

ـ قال ان حفظ التحقيق ومرض نوال وكلام الموظفين جعله

يتقدم بهذه الشهادة حتى يبرىء نوال بعد ان كان لا يريد أن يورط نفسه فيموضوع كهذا ٠

ـ تعنى أنه ربما دفعه أحد الموظفين الى هذه الشهادة المزورة نكاية فيك ؟

ـ كل شىء جائز لكن ما الدليل على هذا ٠ ؟

« لا ، أرجوك ألا تبحث عن مثل هذا الدليل والا فسوف تقتلنى قتلا ٠٠ كنت أريد أن أعرف لماذا تأخر فى انقاذى من هذا العذاب » ٠

ـ على كل حال سأعيد مناقشته ولا بد أن يأخـــذ التحقيق مجراه ٠٠

***

حين خرج رشاد من حجرة المدير كانت أخبار شاهد الاثبات قد سبقته الى كلالمحققين وكان يبدو أن هذه الشهادة قد أفقدتهـــم جميعا مناصبهم فجأة ٠٠

فقد أصبح كل شىء واضحا كالشمس ، وتحولت نظرات الشك فى عيونهم الى يقين بارد لم يأبه له وأحس أن المنفى الصغير يتســع ليصبح كل العالم بعد أن أيقن أن نوال ستكون معه وسيـتقف الى جواره ٠

الشىء الغريب الذى بدأ يدركه يوما بعد يوم ، أن جميع زملائه فى الشركة بعد أن اطمأنوا الى ثبوت التهمة عليه ، والى أنه لم يعد الشخص الذى يعتز به المدير ، ولا يكف عن الحديث عن امتيازه وخلقه والى انه اصبح مثلهم لا يقف فوق مستوى الشـــبهات ، قد أصبحوا أقرب اليه مما كانوا ، وفجأة اكتشف أنه هو ونوال وهم يقفون فوق أرض واحدة ٠٠ وكانت تلك آخر وربما أعظم مكرمـــة لشاهد الاثبات الوحيد !

رسـالة

فى تلك الليلة كان « سمير » مصـمما على ان يكتـب هذه الرسالة · جلس الى مكتبه ، أخرج ورقة متوسطة الحجم ، ثـم طلب من زوجتـه ان تسـرع له بقدح القهوة ، وأشعل سيجارة راح يتأمل دخانها وهو يتلاشى ببطء فى جو الحجرة الراكد ··

وقعت عيناه على مجلة « الفكر » التى احضرها اليوم فقط دون ان يفتح غلافها · فكر ان يتسلى بتصفحها الى أن يفـرغ من قهوته ، ولكنه قاوم تلك الرغبة بعناد ، ففى مرات كثيرة سابقة اعتزم كتابة هذه الرسالة ، وكان يبدأ عادة بتصفح كتاب أو مجلة ثـم تنتهى الليلة مع الكتاب أو المجلة،ثم يرجىء الرسالة الى الغد··ولكنه مصمم على ألا يفعل شيئا فى هذه الليلة قبل ان ينتهى من كتابة تلك الرسالة ·· انه لا يصدق أنه يحاول منذ خمسة أعوام ان يكتب تلك الرسالة ··· ومع ذلك فهذه هى الحقيقة ، ولكنها ليست الحقيقة كاملة ، فالرسالة التى سيكتبها الليلة تختلف تماما عن تلك التى كان

يحاول كتابتها منذ خمسة أعوام · لن تزيد رسالة الليلة عن سطور قليلة ، فهذا ما قرره أخيرا ليضمن ان يفرغ من كتابتها الليلة ··· أما الرسالة القديمة فقد كان يعد لها خمس صفحات على الأقل ··· كان يريد خلالها ان يسأل نفسه وصديقه أيضا ··· كيف أمكن ان يحدث هذا الشيء الفظيع ؟ كيف مضى عام كامل دون ان يتبادلا رسالة واحدة ؟ مع أنهما ظلا طوال سنى الدراسة الثانوية والجامعية لا يفترقان · كان يريد ان يبرر موقفه ، وأن يعاتب صديقه لأنه لم يكتب له ايضا ·· وقتها كان يميل الى ان يلتمس لصديقه عذرا ··· فقد كان هو أحسن حظا منه ، حيث أتيح له بعد تخرجه ان يجد عملا فى احدى الصحف اليومية ، بينما عمل صديقه فى مدينة « س » ·

لايزال يذكر هذا اليوم ، كانا متفائلين رغم ما أحسا به من مرارة لأنهما سيفترقان ··· ومع ذلك فلم يسمح واحد منهما لهذا الشعور بالمرارة ان يظهر فى حديثه أو حتى فى ملامحه ، وكأن فى اعترافهما بتلك المرارة اعترافا بالخوف على صداقتهما واعترافا بضعفهما فى الوقت نفسه ·· لقد صمدت خلال أعوام طويلة لكل ما يمكن ان يحدث فى حياة شابين يجتازان مرحلة المراهنة الى الشباب ··· كانا يتنافسان على كل شيء ، على الفوز فى المسابقات الأدبية ، وعلى الفوز باحدى الزميلات ، وعلى الفوز بحب الأدباء الكبار الذين كانا يقرآن لهم ·· وكانا يصطدمان ، ويتخاصمان ، ويبكيان أحيانا بالدموع ، وفى النهاية كان كل شيء يذهب ·· وتبقى صداقتهما · كان يربط بينهما شعور خفى بأنهما وحدهما متفوقان على كل من عداهما من الزملاء ، بحيث لم يجد أحدهما فى غير الآخر ندا لصداقته ، وكان هذا الشعور الغامض بأن احدهما لن يفهمه غير صاحبه ، يدفعهما أحيانا لكى يتصارحا بتلك المشاعر المعقدة التى يمكن ان يحس بها أى صديقين أحدهما حيال الآخر ، والتى يحرصان

فى الوقت نفسه على اخفائها ، يندفعان الى ذلك تحت وطأة ذلك الاحساس الغريب بالتفوق ، وكأنهما يتحدثان عن شخصين آخرين لا يمتان لهما بأية صلة ، وكما يتحدثان عن شخصيات الروايات ٠٠ وكان شعارهما فى تلك المرحلة تعبر عنه تلك العبارة التى يرددانها أحيانا بنبرة ثقة واعتداد : « يبدو أن الناس جميعا يتآمرون ضدنا بطريقة ما لكى نبقى أصدقاء الى الأبد ٠ فهم لايفعلون أكثر من أنهم يجعلوننى اكتشف دائما كيف أنك أفضل منهم » ٠

وحين افترقا ٠٠٠ لم يدر بخلدهما للحظة أنهما يمران بفترة حاسمة فى حياتهما ، فبعد أسابيع قليلة كتب « سمير » أول رسالة الى صديقه « هـ » حاول خلالها أن يقنع نفسه وصديقه بأن شـــيئا فى حياتهما لم يتغير ٠لم يشر بكلمة واحدة الى أن أحدهما بعيد عن الآخر بعضهما ٠٠٠ كان يثرثر معه فى بساطة وحول أشياء عادية كتلك التى كانا يتحدثان عنها حين يلتقيان فى البيت أو المقهى ٠٠٠ وجاء رد صديقه « هـ » بنفس اللهجة والأسلوب ، وبدا كأنه مقتنع تماما بأنه لم يفتـــرق عن صـــديقه ، ثم انقطعت الرســـائل ٠٠٠ هكذا دون مقدمات ٠٠ !

فى البداية لم ينزعج « سمير » لذلك ٠٠٠ كانت حياته الجديدة قد بدأت تشغله ٠٠٠ وتملأ كل دقيقة بالعمل والأصدقاء والمواعيد ، وفى الليل يتلقفه الفراش جثة هامدة ، ودائما ٠٠٠ فى نهاية كل سهرة ٠٠٠ كانت الجثة الهامدة تتذكر « هـ » ٠

وكان يفكر أنه يجب ان يكون عمليـا حتى فى صـــداقته مع « هـ » ٠ كان يريد ان يدعم مركزه فى الحياة الأدبية ليقف على قدميه أولا ، ثم يمد يده الى صديقه ٠٠٠ فهذا هو مايحتاجه « هـ » حقا وليس مجرد خطاب يثرثر فيه عن أى شىء !

ولم يفكر مرة واحدة فى الوقت الذى يمكن ان يحتاجه لكى يدعم موقفه فى الحياة الأدبية ... ويبدو كما لو أنه خدع فى طبيعة هذا الوقت ، أو على الأقل فى فهم تلك العبارة الغامضة « تدعيم موقفه » ، فمتى يشعر شخص ما بأن موقفه أصبح مدعما فى أمر من الأمور ؟

وفى الحقيقة أن أهم ما اكتشفه سمير مع الوقت كان هو سخافة افكار كثيرة كان يؤمن بها . بدأ يدرك سخافة تلك الفكرة القديمة عن امتيازه وتفوقه ، فقد رأى أنه لا توجد فى ذهن الناس صورة لمعنى الامتياز ، وانه مهما تكن تلك الصورة فمن المهم جدا ان يقنع الآخرون بذلك قبل ان يقتنع هو به ... ! وان فكرة الصديق الواحد بدت هى الأخرى اكثر سذاجة وسخفا ، وأن عليه لكى يدعم موقفه ، ان يعرف اناسا كثيرين ، وانه يمكن ان يكون بالنسبة لبعضهم نصف صديق أو أقل أو أكثر ، وان هذا ضرورى جدا اذا ما اراد أن يصنع شيئا لنفسه أو لصديقه ... !

وذات ليلة اكتشفت الجثة الهامدة ـ وهى تلقى بنظرة على نتيجة الحائط ـ أنه قد مضى عام كامل على آخر رسالة تلقاها من صديقه « هـ » ... فى تلك الليلة لم تنم الجثة ، وأيضا لم تنجح فى كتابة رسالة الى « هـ » ... ليلتها فكر « سمير » أنه يجب أن يصارح صديقه فى رسالة طويلة بكل التغيرات التى حدثت فى أفكاره ولكنه ـ ولأول مرة ـ وجد نفسه يخشى مصارحته .

وبالتأكيد أن فى هذه المصارحة ما يمكن أن يمس شعور صديقه وكبرياءه ، وهو هناك وحيد وبعيد فى مدينة « س » .

ولأول مرة أحس بالأسى من أجل صديقه .. ولكنه فكر أنه لابد أن يكتب له ، وأن يكون رقيقا ولبقا ، بحيث يوضح له أن هذه القطيعة

لم تكن أبدا بين قلبيهما ، وأن يعاتبه بقسوة أيضا على عدم كتابته ، حتى لا يدعه يحس لحظة واحدة بطعم الأسى فى خطابه ، ولكن كتابة مثل هذه الرسالة تحتاج وقتا لا يكون فيه سمير مجرد جثة ٠ ! وقتا طويلا وهادئا ينتزعه من العمل والأصدقاء والمواعيد ٠

فى تلك اللحظة دخلت زوجته تحمل قدح القهوة ، وألقت نظرة على الأوراق التى أمامه ٠

ـ ماذا ستكتب ؟

ـ رسالة ٠

ـ والقصة المطلوبة بعد غد ؟ ٠

ـ سأكتبها غدا ٠

ـ يوم واحد لا يكفى ٠

ـ سأبدأ فيها بعد كتابة الرسالة ٠٠

وخرجت « عايدة » ، واختفى خلف الباب الذى أغلقه « الروب » الأنيق الذى يلف جسدها بباقات من الورد بدت وكأنها تتفتح على جسدها النضير ٠٠٠ الغريب أنه فى صباح تلك الليلة التى قرر فيها أن يكتب رسالة طويلة لصديقه اكتشف وجود « عايدة » التى كانت تعمل معه فى نفس الصحيفة ، والتى كان يراها كل يوم ويتحدث معها ، ويردد مع زملائه أنها صاحبة أجمل عينين ٠٠٠ اكتشف فى هذا الصباح معنى جديدا لوجودها ٠٠٠ لقد قالت له :

ـ لم تحضر منذ يومين ٠

ـ كنت متعبا ، انفلونزا خفيفة ، الجو متقلب هذه الأيام ٠

ابتسمت عايدة ولمعت عيناها وهى تقول :

ـ أنت الوحيد الذى بدأت تصيف هنا ٠٠ كنت ترتدى القميص طوال الأسبوع الماضى ، وجئت هنا مرتين فى الليل بالقميص نفسه ٠٠

ـ هذا صحيح ... لو كانت أمى تعيش معى ماتركتنى أفعل ذلك .

ـ تعيش وحدك اذن ؟

ـ وحدى بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ..

بعد هذه الكلمات لم يعد « سمير » يشعر بأنه وحيد ، ولم تعد « عايدة » مجرد زميلة يراها كل يوم ..

أصبحت كل شىء فى حياته ، كيف لم يحس قبل هذه اللحظة بأنها كانت تهتم به ؟ وبأنه يحمل لها فى قلبه ـ دون أن يدرى ـ كل هذا الحب ؟ ! ...

ودون أن يدرى أيضا ، وجد كل شىء فى حياته يستهدف عايدة ... العمل والنجاح ... وحتى الرسالة الطويلة التى أراد أن يكتبها لصديقه فكر أن تصبح « عايدة» موضوعها الوحيد ، ويالله من موضوع يحمل فى طواياه أرق اعتذار عن هذه القطيعة ! انه أجمل ألف مرة من ذلك الخطاب الرقيق اللبق الذى كان من الجائز أن يفقد فى بعض سطوره شيئا من لباقته فيمس شعور صديقه ...

ولكن قصة حبه لعايدة كانت كأى قصة حب فى العالم تخضع لهذا الايقاع الذى يتردد دائما بين السعادة والألم ، وفيها تلك الحيرة العذبة المعذبة التى لا تدع صاحبها يستقر على حال ، والتى تدفع به أحيانا الى أن يتحدث عنها مع أقرب صديق وليس فى رسالة طويلة لصديق بعيد ، لا يدرى مدى استعداده لسماع هذيان انسان يحب ، صديق لا يرد لهفته بكلمة سريعة أو حديث طويل ..

وفكر أنه من الأنسب أن تتحول الرسالة الطويلة الى خطاب رقيق يدعوه فيه لحضور حفل زواجه .. وفى هذا الحفل ، وبين الناس وأمام عروسه ، سيذوب كل شىء .

ولكن حفل زواجه كان عملا اجتماعيا بحتا حددت وقتـــه وطريقته والمدعوين فيه ظروف غريبة لم يخطر بباله يوما أن تظهر فجأة لتتدخل فى شىء كهذا ، وبهذه القوة · وزاد المشكلة تعقيدا أن احدى الصحف نشرت خبر زواجه ، وفكر أن صديقه ربما قرأ الخبر وربما ظن أنه لم يعد له مكان فى حياته ، وعادت فكـــرة الرسالة الطويلة اللبقة تحتل مكانها فى رأس سمير ، فبعد الزواج ستهدأ حياته ، سيكون له بيت وحين يعود اليه لن يكون مجـــرد جثة ، وسيكتب الرسالة ، وستكتبها معه زوجته ، وسيدعوان «هـ» لزيارة خاصة ··· و ···

***

وفتح الباب ودخلت عايدة ··· وقالت بصوت مضطرب :

ـ « ناهد » حرارتها مرتفعة ··

ـ كيف ؟

ـ حين نامت كانت طبيعية ، أزاحت عنها الغطاء ··· حاولت أن أعيده وجدت جسدها ملتهبا ·

ـ ربما أخذت بردا ·· الساعة الثامنة ··· يمكنك ان تذهبى بها للدكتور ·

ـ ألا تأتى معى ؟

ـ لابد ان أفرغ من هذه الرسالة ·

ـ كنت أعتقد أنك انتهيت منها ؟

ـ لا أظن أن حالة ناهد تدعو للقلق ··· ولكن الأفضل ان تذهبى بها للطبيب ···

وخرجت عايدة ... وخرج معها فقط ليطمئن على ابنته قبل أن تذهب بها للطبيب .

***

وعاد « سمير » ليكتب الرسالة ... حاول أن يغالب القلق الذى بدأ يحس به بعد أن خرجت زوجته .. لقد تخلص من كل شىء فى هذه الليلة ليفرغ من كتابة هذه الرسالة ، تخلص من أصدقائه ومن مواعيده ، ولكن ها هى ابنته ترتفع حرارتها فجأة ... دائما كان هناك شىء يحدث فجأة ، فيدفع بتلك الرسالة الى الغد .. الى وقت آخر ، ولكنه لن يسمح لشىء مهما يكن أن يعوقه هذه الليلة .. وأشعل سيجارة جديدة وراح ينفث دخانها بعصبية هذه المرة ... أحيانا كثيرة كانت تعوق هذه الرسالة أشياء صغيرة ليست أبدا مثل مرض ابنته .. أشياء لا يستطيع المرء أن يذكرها أمام أحد ـ غير نفسه ـ كمجرد اعتذار .. ! أشياء مثل زائر يأتى بلا موعد . أو دعوة مفاجئة من صديق للمسرح ، أو سؤال عابر من زوجته يتحول الى ثرثرة ، أو خبر تقع عليه العين فى صحيفة قديمة فيجرنا الى قراءة أشياء لم نكن نهتم بها قط .

وأحيانا يكون الملل الذى يهبط فجأة فيجمد كل شىء ..

ولكن هذه الأشياء الصغيرة ما أن تقع .. ما أن تصبح جزءا من المكان والوقت حتى تدفع بكل ما عداها الى مكان وزمان آخرين !

أى قوة تكمن فى هذه الأشياء الصغيرة ؟ خلال هذه الأعوام كان يبصر هذه الاشياء ، وهى تنسج فى تتابعها البطىء خيوط حياته وتعطى هذه الحياة لونها وطابعها ومعناها .. وخلال هذه

الأعوام كانت الأحداث الحقيقية ... الاحـــداث التى يمكـن أن يقولها للناس كاعتذار عن شىء أو سبب لشىء ... هى وحـدها التى تبدو كأطواق النجاة . فحين أجرت زوجته جراحة خطيرة وهى حامل فى ابنته « ناهد » ، وحين أصيب هو فى حادث سيارة ، وفى كل مرة سافر فى رحلة صحفية أو أخرج كتابا ... فى كل هذه المرات كانت الرسالة الطويلة تجد مادة خصبة ، وكانت تملأ رأسه فى كل مكان ... فى الأتوبيس وفى الطريق ، فى المستشفى وفى مكان العمل .. ولكن ما يكاد يجلس الى مكتبه حتى يكون هنـاك شىء مطلوب غدا أو بعد ساعات ... شىء وراءه شخص يتكلم ، أو يدق جرس الباب أو جرس التليفون ، شىء يدفع بتلك الرسالة الى الغد ، فصديقه هناك ينتظر وكأنه لن يمل أبدا هذا الانتظار ، وكأنه لم يعد فى حياته سوى ان يقرأ هذه الرسالة .. ليصدق كل كلمة فيها ، ليهدأ ، ليقتنع .. لينتهى كل شىء . صديقه هناك فى مدينة « س » ولن يقابله مصادفة فى الطريق ليعاتبه .. صديقه لم يطرق الباب بعد ، ولم يدق جـرس التليفون ، وهو وحده دون كل الأصدقاء يبدو بلا صوت ، وبلا ملامح تغضب أو تعتب ، صديقه يتحول الى فكرة أو أمنية ويشحب أحيانا كما تشـــحب الأفكـار والأحلام ويختفى من رأسه فجأة كما تختفى فكرة كانت تطاردنا فى كل لحظة ، ولكن ـ ويحدث ذلك فجأة أيضا ـ يظهر صديقه وغالبا ما يحدث ذلك فى اللحظات التى يوشك فيها ان يتسلل النوم الى عينيه ... ليقول له ... « ان رسالتك وصلتنى ولكننى لم أفهم منها كلمة واحدة ، اننا فى مدينة « س » نتكلم لغة أخرى غير لغتكم وان لى هناك أصدقاء أفهم لغتهم ، وان رسالتك لم تكن تنقصنا » .

فى هذه المرات كان سمير يفكر بأن الرسالة الطويلة لن تجدى وانها لم تعد أبدا فى مستوى الموقف .. وانه اذا كان يريد حقـــا أن يسترد صديقه فلابد أن يسافر الى مدينة « س » فى احـــدى

الاجازات ، وأن يقابل صديقه ، وفى مثل هذا اللقاء يمكن أن يجد لغة مشتركة ، وأن يذللا معا الصعاب التى لا يشك لحظة واحدة فى وجودها ... وكانت هذه الفكرة تمنح « سمير » راحة تنتهى عادة مع بداية الاجازة التى يكتشف فى كل مرة أنه لم يكن ينتظرها وحده ... فهناك أناس آخرون ينتظرون ، وفى مدن أخرى كثيرة هناك أبوه وأمه ... وأسرة زوجته ، وشقيقته الوحيدة المتزوجة ، ويعود « سمير » من الاجازة ، وتعود فكرة الرسالة الطويلة تحتل مكانها فى رأسه ، ليس هناك من حل آخر ، انها الخيط الوحيد الذى لو ضاع من يده لفقد صديقه الى الأبد ...

ويصبح لهذه الرسالة دوافع جديدة وغريبة .. لم يعد كل مايهمه ان يسترد صديقه ... بل ان عليه أن يكتب الرسالة لكى يسترد احترامه لارادته .. من أجل أن يشعر أنه قادر على أن يفعل شيئا تقف فى وجهه جميع الأشياء ... من أجل أن ينقذ نفسه من سؤال لايدرى كيف انفجر ذات مساء فى رأسه !

هكذا دون مقدمات وجد نفسه وجها لوجه أمام هذا السؤال هل هو حقا يريد أن يكتب رسالة لصديقه ؟ واذا كان يريد ذلك ، فلماذا لم يكتبها ؟ .. أجل لماذا لم يكتب تلك الرسالة ؟ هكذا كان يأتى السؤال دائما ، وكأنه صادر عن شخص آخر لا يعرف شيئا عن ظروفه أو بعبارة أدق لا يعترف بها .

وفى تلك اللحظة الغريبة كان كل شىء يبدو له زائفا ولا معنى له ... حياته ... وعلاقاته .. وكل ما يعمل . !

كان من الممكن لولا مصادفة صغيرة أن يكون هو فى مدينة «س » بدلا من صديقه ، وكان يتصور نفسه هناك وحيدا وبعيدا ينتظر تلك الرسالة التى لا تصل أبدا ، ويحس بهذا الانتظار وهو

يتحول مع الأيام الى كراهية عميقة لهذه الرسالة ورفض كامل لكل ما تحمل ، بل ورغبة فى تمزيقها وتمزيق أى صلة بالحياة خارج مدينة « س » ·· وكان يحس أن مدينة « س » ليست بعيدة عنه بالدرجة التى يتصور ، وأنه من الممكن فى أى وقت من حياته أن يصبح من رعاياها ، رغم وجوده فى القاهرة ، وأنه فى هذا الوقت تصبح مثل هذه الرسالة الشىء الوحيد الذى يجعل المرء قادرا على أن يواصل الحياة ، أجل فالمرء لا يحس أن حياته متصلة ، وأنها حياة شخص واحد ، الا من خلال شعوره بأن هناك شيئا يمكن أن يبقى دائما رغم كل الظروف ، شيئا نثق فيه ونطمئن اليه ، شيئا لا يتغير خلال الزمن ·· وأمس فقط ، ضاعت الفرصة الوحيدة لكى يصنع باختياره هذا الشىء ·

كان ذلك حين زاره صديقه « رءوف » الذى عاد لتوه من مدينة « س » حيث أقيم بها معرض للكتاب العربى ···

قال رءوف :

ـ هل لك أصدقاء فى مدينة « س » ؟

أجاب سمير وهو يدارى قلقه :

ـ نعم ·

قال رءوف :

ـ قابلت هناك مجموعة من الأصدقاء ، كان معهم أشخاص لا أعرفهم ·· جاءت سيرتك ·· تحدثوا عنك بحماس ، كان بينهم شخص ظل صامتا طوال الوقت ، سألته :

ـ ألم تقرأ شيئا للأستاذ ؟

أجاب :

ـ جميع كتبه ٠

ـ لم تقل رأيك فيه ؟

ـ ماذا يهم رأيى ؟ للاستاذ جمهور كبير لن أزيده أو أنقصه !

ـ ولكنى مهتم برأيك فهو صديقك ، وأريد أن أبلغه جميع الآراء فى كتبه ٠

ـ أنا أيضا كنت يوما صديقه ، فهل ترى هذا شيئا مهما ؟

ـ لم أدر كيف أجيبه ؟ شعرت أن فى الأمر شيئا ٠٠٠ قلت محاولا انهاء الحديث :

ـ هل تريد أن أبلغه أى كلام ؟ قال :

ـ سلامى ٠

***

وجد سمير نفسه بعد سماع هذه القصة يعيش فى دوامة أصبح معها عاجزا عن أى شىء ٠ عاجزا حتى عن الشىء الوحيد الذى يمكن أن ينقذه منها ٠٠٠ عن كتابة رسالة الى صديقه ٠٠٠ وفكر فى هذه الليلة أن من المستحيل أن ينظم أفكاره المضطربة فى رسالة طويلة ، ومع ذلك فلابد أن يصنع شيئا ، شيئا يسكت به هذا الضجيج الهائل الذى يمزق رأسه ، ولاحت له فكرة الرسالة القصيرة كطوق النجاة ٠٠٠ المهم أن يكتب أى شىء ، أى سطور ٠٠

المهم أن تمتد يد ، أن يتحرك شىء فى هذا الفراغ ، أن تنبض كلمة أى كلمة ٠٠ ربما لو فكر منذ سنين أن يكتب رسالة قصيرة لكتب عشرات الرسائل ٠٠ ولما وجد نفسه يواجه هذا الموقف الصعب ٠٠ سيعتقد صديقه « هـ » ان هذه الرسالة ما كانت لتصله

أبدا لو لم يحدث هذا اللقاء بينه وبين رءوف ومع ذلك فلابـد من كتابتها ... والا فسيكون الأمر أكثر فظاظة لو ان هذا اللقاء لم يثمر سوى الصمت ..

***

أشعل « سمير » سيجارة جديدة .. علبة سجائره أوشكت على النفاد قبل أن يكتب حرفا واحدا ... لابد أن زوجته ستحضر الآن ... من الضرورى أن يفرغ من هذه الرسالة قبل أن تصل .. وأمسك بالقلم فى عصبية وراح يكتب .

« عزيزى هـ :

لا أدرى كيف أبدأ هذه الرسالة ؟ وكيف أجعلك تصدق أننى منذ فارقتك ... أعنى منذ أكثر من خمسة أعوام وأنا أحاول أن أكتب اليك خطابا طويلا يوضح كل شىء ... ولم تشهد هذه الأعوام سوى فشلى فى تلك المحاولة ولهذا فلا أريد أن أكرر هذا الفشـل لأننى حريص على أن يصلك هذا الخطاب بأى ثمن .. سأحاول هذه المرة ياصديقى أن أكتب لك سطورا قليلة . »

توقف سمير عند هذا الحد .. أعاد قراءة ما كتب ... لم يسترح لهذه البداية .. كيف يمكن أن يحس بها صديقه ؟ لابد أن يستمر فى كتابة الرسالة بأى ثمن ! لماذا تبدو الحقيقة صـعبة التصديق الى هذا الحد ؟ ثم عاد يكتب :

« أريد أن أقول لك .. ثق ان كل شىء لم ينتـه بعد .. لا الوقت ولا صداقتنا ولاالرغبة فى أن ننقذ ما يمكن انقاذه .. اننى أمد يدى اليك فلا تتركها معلقة فى الهواء ، حاول ان تمد يدك ... وثق أنه بين يدينا ستدب الحياة فى أشياء كثيرة » .

تنفس « سمير » بارتياح حين كتب هذه السطور ، الدوامة التى تدور فى رأسه تتوقف فجأة ... لو لم يكتب حرفا واحدا بعد هذه السطور لكفى .

أعاد قراءة ما كتب مرة ثانية وثالثة ، وفى المرة الرابعة وكانت عيناه تتوقفان عند هذه الكلمات ... « ان ننقذ ما يمكن انقاذه .. أمد يدى اليك » الا يمكن أن يكتب كلمات أخرى غير تلك التى يبدو خلالها كمنقذ لا يريد ان يضيع وقته ووقت من يحتاج الى عونه .. وعبثا حاول أن يجد فى رأسه كلمات أخرى ... لم يجد سوى الضجيج الذى عاد يدق رأسه مع أول احساس بالضيق من كلمات الرسالة ..

حين دق جرس الباب ، وجد نفسه ينتفض فى فزع وكأنه يريد أن يسكت الدق ..

فتح الباب ودخلت زوجته :

ـ كيف حال ناهد ؟ ـ وحملها بين ذراعيه ـ ماذا قال الدكتور ؟

ـ اشتباه فى حمى معوية ... قالت زوجته هذه العبارة وهى تضع لفافة الدواء على المنضدة .

ـ كم تكلف الدواء ؟

ـ ثلاثة جنيهات .

حمل ناهد الى سريرها . قالت زوجته وهى تسوى حولها الغطاء ..

ـ سيتكرر الدواء وسنحتاج الى نقود .. حاول أن تكتب القصة فى موعدها ..

جلس سمير الى مكتبه ... أشعل السيجارة الأخيرة ... كيف يمكن ان يكتب قصة ورأسه ينتفض كالمحموم ؟ كيف يستطيع أن يسكت هذا الضجيج ليفكر فى مشكلة وشخصيات تتصارع مع هذه المشكلة ، وأن ينفعل بهذا كله ويكتبه .. هو الذى يعجز عن ان يغير سطورا فى رسالة صديقه ؟ .. وفجأة لمع فى رأسه خاطر بدا له غريبا فى أول الأمر : لماذا لا يكتب قصة عنوانها « رسالة » ... لن يحتاج الى البحث عن مشكلة أو شخصيات ... ليس أمامه سوى أن يمسك القلم ويكتب ويكتب ..

***

وفكر أنه لو نجح فى كتابة هذه القصة ، فسيستريح دون شك، وسيكف هذا الضجيج الذى يمزق رأسه ، ومن المؤكد أنه سيصبح قادرا على ان يكتب لصديقه رسالة حقيقية ، اذ ليس من المعقول أن تكون هذه السطور السخيفة هى ما ينتظره صديقه بعد كل هذه السنين .. لا بأس أن يؤجل الرسالة الى الغد ... لن تتأخر عن الغد بأى حال ، فمن الضرورى أن تصل لصديقه قبل ان تنشر القصة فى نهاية الأسبوع .

***

وفجأة بدت ملامحه وكأنه يشاهد منظرا بشعا للغاية ... وكأنما اختفى المنظر فجأة حين ارتخت تلك الملامح بينما ظلت عيناه وحدها تحدقان فى فراغ الحجرة ، وكان من يراه فى تلك اللحظة يخيل اليه أنه يتابع بعينيه حلقات الدخان المتصاعد من سيجارته التى تحترق وحدها ، وكأنه يريد أن يعرف أين يذهب هذا الدخان . وكيف يصبح هكذا بعد لحظات وكأنه لا شىء ...

ثلاث رسائل من امرأة مجهولة

لم يتصور يوما أن شيئا كهذا يمكن أن يحدث ، أن يصبح اليوم كله مجرد انتظار قلق لهذه اللحظة التى يقبل فيها « سيد » وفى يده حزمة خطابات المصلحة كلها ... لينتقى منها ـ فى بطء يثيره ـ الخطابات الخاصة به ، ويتركها على مكتبه ، وقبل أن ينصرف ، يبدأ هو فى تمزيق أغلفة الرسائل فى لهفة ، بحثا عن رسالة جديدة تلقى الضوء على تلك المرأة المجهولة التى مست حياته بما يشبه السحر .

ألقى نظرة على ساعة مكتبه .. كانت تشير الى التاسعة صباحا . لا تزال أمامه ساعة كاملة قبل أن يحضر «سيد» من مكتب البريد ، أنه يعرف هذه الساعة اللعينة ، انها أطول ساعات النهار كله ، لا يستطيع فيها أن يركز ذهنه فى شىء ، بل لا يستطيع أن يستقر فى مكانه ، الساعة التى سيكتشف بعدها ما اذا كان سينتظر يوما آخر من هذه الأيام القلقة .. انه لا يصدق أبدا أنها لن تكتب

اليه مرة أخرى كما زعمت فى خطابها الاخير ... انه واثق تماما من انها ستكتب له من جديد ، ثقته بما فى طبيعة البشر من حيرة وتردد ورغبة فى التجربة ، ولكن هذه الثقة تتحول فى اللحظات الأخيرة التى تسبق عادة وصول « سيد » الى نوع من الشك المروع حتى فى قدرته على أن يفهم ، وبلا شعور تمتد يده الى درج مكتبه لتدير فيه المفتاح ، ثم تخرج ظرفا خاصا تسحب منه الخطابين اللذين وصلا من القارئة المجهولة ليعيد قراءتهما من جديد ... وكأنه يفعل ذلك لأول مرة ، وكأنه سيخرج من هذه القراءة بشىء جديد يجعل الامر أكثر وضوحا . وراح يقرأ ...

« عزيزى .

لا أدرى كيف أبدأ هذه الرسالة التى عاشت طويلا فى نفسى دون أن اجرؤ على التفكير فى كتابتها ، كنت دائما أخشى أن أسىء التعبير عما فى نفسى ، فأدفعك الى أن تسىء الفهم ، فموقفى منك دقيق غاية الدقة ، وربما أدت أقل الأخطاء فى معالجته الى نتائج لا أحبها لك ولا لنفسى ..

أدرك أنك الآن تود أن تعرف شيئا عن هذا الموقف ، خاصة وان امامك رسالة بلا توقيع ، وثق أننى لم أفعل ذلك لمجرد اضفاء جو من الاثارة على موقفى منك ، بل لأسباب اعتقد انك ستقدرها .. فأنا واحدة من قارئاتك اللواتى يتتبعن باهتمام كل ما تكتب ، وأنا قبل ذلك ـ وهذا ما جعل موقفى منك يصبح بهذه الدقة والحساسية ـ صديقة لزوجتك ..

ومع أننى أعتقد أن الكاتب ـ أكثر من أى شخص آخر ممن يشتغلون بالمسائل العامة ـ ليس ملكية خاصة لأسرته ، وان من حق الناس ، وبالأخص أولئك الذين يهتمون بأدبه ـ من حقهم أن

يكون لهم جزء من حياته ومن وقته ·· وأننى مع ايمانى بهذا الحق لم أفكر قبل هذه اللحظة فى الكتابة اليك ، ولو لمجرد التعبير عن تقديرى لما تكتب واهتمامى به ·· بل ولم أسمح لنفسى فى المرات التى كنت ألتقى بك فيها فى بيتك أن ينم حديثى معك عما أكنه لفنك من اعجاب ··· كنت قانعة بتتبعك فى كل كتاباتك ·· حريصة على الا أتورط فيما يمكن أن يمس بأقل اهتزاز تلك الخيـوط الدقيقـة الحساسة التى تربطنى بأسرتك ·· وأيضا بك ··

ولكن ما يخرج بى الآن عن هذه الحدود التى رسمتها لنفسى هو أننى لاحظت انه قد مضى أكثر من عام على آخر كتاب لك ·· وخلال هذا العام لم أقرأ لك شيئا يذكر ، وربما لو كنت بعيدة عن حياتك لتوهمت أن لديك ظروفا خاصة قوية تقف وراء صمتك واحتجابك عن الناس ·· ولكنى بحكم صلتى بك أعرف ألا شىء هناك على الاطلاق ، بل أكثر من ذلك عرفت ما جعلنى أقرر فى النهاية أن أكتب لك مهما تكن الظروف ، كانت زوجتك تحدثنى ـ كلما دار الحديث حول هذا السؤال «لماذا لاتكتب ؟» ـ بأسى مرير عما بدأت تلحظه على حياتك من تغيير ·· كانت تلاحظ أنك بدأت تواجه مواقف كثيرة فى حياتك وفى حياة مواطنيك بنوع من عدم الاكتراث أو اللامبالاة ، وأنك بدأت تهز كتفيك لأشياء كثيرة كانت تهز قلبك · !

لم أكن أصدق أذنى ، وأنا أسمع هذا الكلام ·· فقد كان أهم ما يميز كتاباتك ذلك الشعور العميق بأنك مسئول ، وبأنك تكتب ليس من أجل الشهرة ، أو المجد أو لمجرد استعراض مواهبك ·· بل لأن هناك فى هذا العالم ما يقلقك ، ما يدوى فى رأسك بعشرات الأسئلة التى تقف بروحك دائما على حافة المجهول ··

ولهذا لم أتصور يوما أن كاتبا مثلك يمكن أن يتوقـف عن الكتابة ، فهل أصبح العالم هو المكان السعيد الذى لا تشـعر فيه

بالقلق ؟ هل كف العالم عن أن يوجه اليك سؤالا من أى نوع ·· هل تعرف معنى صمتك هذا ؟ هل تعرف معناه بالنسبة لقرائك ومحبيك؟ هل خطر ببالك مرة واحدة أنك تقف وحدك وأن صوتك يتحول الى صراخ فى صحراء ؟ ··

يا عزيزى ·· ان موهبتك ليست ملكية خاصة بك ، وليس من حقك ان تهملها كما يهمل المرء ثوبا لا يروق له ··· انها ملك لكل من يقدرونها ويحتاجون اليها أيضا ·· اننى أتوسل اليك بكل ما أملك من تقدير وحب لفنك أن تعود لقلمك ·· وثق أنك بهذا ستعيد الى آلاف القراء الفرحة والحماس للحياة ··

وأعتقد أنك بعد هذا كله ستغفر لى ، وتقدر أننى أكتب لك هذه الرسالة بلا توقيع ·· »

ومع أنه قرأ الرسالة مرات لا حصر لها ·· ففى كل مرة يحس بها تمس روحه بما يشبه السحر ·· كيف استطاعت هذه المرأة المجهولة ان تلمس جراحه بكل تلك الحساسية والرقة والذكاء ؟ · كأنها كانت تعيش داخل قلبه ··· لم يخنها ذكاؤها الا فى شىء واحد ، هو أنها تصورت أنه من الممكن أن يهتم فقط بها كموقف وكفكرة دون أن يحاول معرفتها ··· والحقيقة أنه حاول ذلك مخلصا ، ولكنه لم يستطع ·· كان يجد نفسه ـ على الرغم منه ـ يستعرض وجوه صديقات زوجته ·· واحدة واحدة ·· كريمة ·· راجية ·· نوال ·· شريفة ، وتمنى أن تكون هى صاحبة الرسالة ··· ووجد نفسه يتذكر المواقف التى جمعته بشريفة والكلمات التى قالتها ··· وكيف كانت تتصرف وتضحك وتبتسم ، وعبثا حاول أن يجد فى كل ذلك مايمكن أن يكون مقدمة طبيعية لمثل هذه الرسالة، ومع ذلك فشريفة وحدها هى التى تصلح بطلة لقصة عاطفية يعايش خلالها الحياة وهى تتفتح وتزدهر ·· وتكتشف نفسها ·· الأخريات

كلهن زوجات ·· انه لا يصدق أنه أصبح يفكر هكذا ·· ربما كان ما يحتاج اليه حقا هو الحب ·· وراح يقفز بعينيه فوق سطور الرسالة الثانية ··· وتمهلت عيناه عند هذه السطور ··

··· « لقد كان الحفل الذى أقمته بمناسبة العيد الرابع لميلاد وحيدك « أشرف » فرصة تصلح لأن أكتشف أننى تورطت فى خطأ كبير بالكتابة اليك ، وبدلا من أن أنجح فى اثارة اهتمامك بالعودة الى الكتابة نجحت فى اثارة رغبتك فى معرفتى ···

كنت الوحيدة التى فهمت معنى هذه العبارات التى كنت تضمنها أحاديثك بينما هى منقولة من رسالتى حرفيا ··

كنت تنطق هذه العبارات فى بطء مقصود وعيناك ترصدان فى وجوه المدعوات أقل اختلاجة أو تأثر ··· يالها من لعبة خطرة ذات حدين ! ·· فبينما كنت أجاهد حتى لا يبدو على ملامحى أى تأثر ··· كنت أخشى ما يمكن أن يدفعك اليه أقل خطأ فى تقدير موقف احدى المدعوات ·· هل تصدق أن مجرد احتمال أن تنشأ ـ ولو بالمصادفة ـ علاقة من أى نوع بينك وبين أى مدعوة أخرى من صديقات زوجتك ـ كان هذا الاحتمال يملؤنى بالرعب ؟ ··

أرأيت الى أى حد يمكن أن تخرج الأمور من أيدينا ؟ أستحلفك بكل الأشياء المقدسة فى حياتك ، بلطفك وبزوجتك وبفنك أن تنسى هذا الموضوع تماما وأن ·· » ·

وفى تلك اللحظة دخل « سيد » ببدلته الصفراء ومنظاره اللاصق فى عينيه ووضع أمامه مجموعة الخطابات الخاصة به وخرج ··

وفى لحظة أمكنه ان يكتشف بين مجموعة الرسائل رسالة جديدة من المرأة المجهولة ... ومع أنه كان ينتظرها بصبر نافد فقد راح يقرؤها على مهل ... كلمة كلمة ..

« عزيزى :

أرجو أن تهدأ هذه المرة وتطمئن ، فلن تنتهى من قراءة هذه الرسالة حتى تكون قد عرفت كل شىء عنى ... عن القارئة المجهولة ..

فلقد تأكدت أننى سرت من البداية فى طريق خاطىء ، ومع ذلك ، بل ربما بسبب ذلك ... تكشفت لى من قلب هذا الخطأ حقائق كثيرة أعتقد أنها يمكن أن تكون بالنسبة لى ولك بدايات طيبة فى طريق حياتنا معا ..

ان الأعمال فى هذا العالم لن تكون أبدا بالنيات ... فلقد كنت أريد ان ادفعك الى الكتابة فاذا بى أقدم لك ألف سبب جديد ليس فقط للتوقف عن الكتابة بل للتوقف عن أشياء كثيرة لا تمضى الحياة بدونها ..

ومع ذلك ؟ فقد نجحت فى ان أبعث فى حياتك وفى عينيك ذلك البريق اللاهب ... بريق الاهتمام ... ولن آسف لأن ما كنت تهتم به هذه المرة مجرد اسم المرأة المجهولة التى كتبت لك .. تريد ان تعرف اسمى ... حسنا اسمى « هدى » ... تقول انه ليس بين صديقات زوجتك امرأة بهذا الاسم ؟ .. هذا صحيح ولكن يبدو انك فى حاجة الى من يذكرك بأن « هدى » هذا هو اسم زوجتك .. أجل زوجتك .. ومن هنا تبدأ المأساة الصغيرة التى استحلفك بكل ما تملك من شجاعة وذكاء ان تقف الى جوارى لحظات لنواجهها معا بقلوب وعيون مفتوحة ..

ربما لم تكن مأساة شخصية ·· وأغلب الظن انها ليست كذلك · ربما كانت تلك طبيعة الحياة ·· الحياة التى تجعل الرجل ينسى المرأة التى كانت مجرد كلمة منها أو نظرة تضىء له العالم ··· ينساها حين تصبح معه ·· حين تصبح كل حياتها ملكا له ·

لقد فتحت عينى ذات يوم لأجدنى أصبحت عاجزة عن أن أمس قلبك ·· كانت هذه الحقيقة تحملها الى كل يوم عشرات التصرفات الصغيرة التى تفعلها دون قصد ··· ولم أفقد صوابى ··· لقد حاولت الكثير لكى أتسلل الى قلبك ، لكى اجعل هذا القلب يتحمس لى ويخفق كما كان يفعل دائما ··· وفى النهاية كدت أعتقد أننى أحارب الحياة نفسها ··· ولكن الشىء الذى ملأ قلبى بالذعر ·· هو اننى فتحت عينى ذات صباح لأجد هذه اللامبالاة الغريبة التى كنت تواجه بها عواطفى نحوك تتسلل الى حياتك كلها ··· وتوشك ان تغتال حماسك لكل شىء حتى لفنك ·· لقد مضى عام كامل وانت لا تفعل شيئا سوى ان تردد ما يقوله النقاد عن كتبك ·· ولست أزعم اننى افهم اكثر منك ما الذى يجعل الناس يفقدون حماسهم لأمر كانوا يرونه سر حياتهم كلها ، ولكن الذى أعرفه أننى قررت أن أحارب فى هذه الجبهة وأعتبرها معركة حياة أو موت ·

كان الأمر فوق ما احتمل ·· وفى لحظة جنون فكرت فى أن أكتب لك تلك الرسالة ··· كنت مستعدة أن أفعل أى شىء يهز قلبك ينقذك من هذه اللامبالاة الغريبة التى لا أدرى كيف تسللت الى حياتك وربما كنت أجهل فيما يتعلق بفكرة الرسالة حقيقة دوافعى ، وسأترك هنا لك أيضا أن تفكر فيها و ···

وفى البداية خيل الى اننى نجحت فى لعبتى الخطرة ··· ولكنه كان ذلك النجاح المروع الذى جعلنى أكتشف مدى ضعفى

وضعفك ·· لن تستطيع مهما بلغ خيالك أن تتصور هذه المشاعر الغريبة المتناقضة التى كنت أعانيها وأنا أستمع كل ليلة الى أكاذيبك لى عن قارىء مجهول يكتب اليك ·· وتردد فى بلاهة كلماته لك ·· ناسيا أننى كنت أردد عليك أحيانا مثل هذه الكلمات ·· فتسمعها بنصف أذنيك ·· وأنا أجدك تتقلب الى جوارى كل ليلة على الفراش حتى الصباح · أجل ·· لقد نجحت ذلك النجاح المروع الذى جعلنى اكتشف مدى ضعفى وضعفك ·· ضعفك وأنت تتهادى أمام وهم امرأة ·· وضعفى وأنا أجد هذا الوهم ينجح فيما فشلت فيه ·· !

ومع ذلك فثق أننى مستعدة ان اغفر لك ولنفسى هذا الضعف وكل الاكاذيب الرديئة التى قلتها لى ولكنى لن أغفر لك مطلقا ان تتخلى عن قلمك ··· فهل تعدنى بأن تعود الى القلم ؟ ·· لماذا لا تبدأ اذن بهذه القصة ··· قصة ضعفى وضعفك ··· فالفنان حين ينجح فى التعبير عن ضعفه وضعف الناس يكون فى قمة قوته ·· وانتصاره ··

دراسة نقدية

بقلم : أنور المعداوى

ذكاء الملاحظة ـ عند الكاتب القصصى ـ يضعه الناقد أول ما يضع ، فى قائمة التقييم الفنى لانتاج هذا الكـــاتب · ذلك لأن الملاحظة الذكية ـ من ناحية الحكم النقدى على الاصالة ـ تمثـل نقطة الارتكاز الجوهرية لكل ما يملكه القصاص من ملكات ··· لابد من توافر هذه الموهبة اولا : موهبة التأمل والملاحظة ورصد الحركة الدقيقة الموحية ، فى نطاق الوجود الخارجى والداخلى للانسان ، وعلى الناقد بعد ذلك ان يضع فى القائمة ـ على صعيد الترتيب الفنى لامكانيات الكاتب ـ كمية الرصيد الثقافى من تجربة الفهم للاصول التكنيكية ، وتجربة التمثل للواقع المعيش · لقد كانت الملاحظة الذكية هى أكثر الارصدة ثراء فى فن انطون تشيكوف ، وكانت من وجهة

(*) نشرت هذه الدراسة كمقدمة للطبعة الأولى لمجموعـــة « فتاة فى المدينة » · وقد رأى المؤلف اثباتها تقديرا واحتراما لروح الناقد الراحل ·

النظر النقدية عند كثير من النقاد ، هى نقطة الانطلاق الباهر لتفوق المدرسة التشيكوفيه ـ فى محيط ادب الغرب ـ على كل مدارس القصة القصيرة انه يبهرنا بصفاء الرؤية القصصية فى فنه ، رؤية الجزئيات الدقيقة التى يتكون منها موقف داخلى معقد ، يتجسم بعد ذلك فى انعكاسات حركة سلوكية معبرة ٠٠ ومن هنا سمى تشيكوف بحق ، كاتب التفصيلات الصغيرة ٠

هذه التفصيلات الصغيرة ، نستطيع ان نتتبعها فى كل ما يكتب ٠٠ ولكنها تجذبنا بصفة خاصة ، عندما يعرض تشيكوف احدى شخصياته من خلال لحظة حرجة ، بحيث تتدرج هذه اللحظة تدرجا هرميا يصل بالشخصية الى قمة أزمة نفسية معينة ٠٠ هنا نرى ذكاء الملاحظة فى رصد هذا التدرج الهرمى وتسجيل تطوراته ، وكأنه تجربة كيميائية فى المعمل : تتركب من محاليل مختلفة ، وتمر بمراحل متتابعة ، تمتزج فيها هذه المحاليل وتتفاعل ، حتى نحصل فى النهاية على خلاصة التجربة أو نتيجتها النهائية ـ ولقد كانت مفارقات الحياة غالبا هى المحاليل المختارة لتجارب انطون تشيكوف ذلك لأن الحياة فى حركتها الدينامية لاتقدم الينا اعمق لحظاتها الا من خلال المفارقة ، من خلال ذلك التناقض المثير الذى لانتوقعه ، حين يخرج منطق الحياة احيانا عن خط سيره المرسوم ٠٠ عندئذ يصطدم منطق الحياة مع منطق الاحياء ، ومن هنا تحدث المفارقة ٠ وقد تكون المفارقة مضحكة أو مبكية ، تبعا لجوهر التناقض بين منطقين أو اتجاهين ، يحدث بينهما تصادم غير متوقع ولا منتظر ٠

محمد ابو المعاطى ابو النجا تلميذ مجتهد فى مدرسة انطون تشيكوف ٠٠ فيه من خصائص هذه المدرسة ـ فى عدد من قصصه ولا اقول كلها ـ ذكاء الملاحظة وصفاء الرؤية الفنية ، ولكن من خلال عدسة مصرية صميمة ٠٠ الكاتب الذى وقف فى الطابور

ساعات طويلة ومرهقة ، لم يقف لمجرد تجديد بطاقته أو لمجرد التسلية بمنظر طابور آدمى عجيب ·· لقد وقف يرقب الشـــعب ويتأملـــه ويلاحظه ، ويفسر لنا ــ عن طريق عملية السرد الموحية وعلى ضوء السلوك الخارجى ــ اكثر من حقيقة نفسية داخلية تصنع وتوجه هذا السلوك · لقد كان الطابور قطاعا حيا من قطاعات هذا الشعب ، كان كما تخيله الكاتب قد تكون بهذه الطريقة : « جاء رجل ضخم جـدا وراح يمد يده فى كل مكان ، فى الشوارع والحوارى ، فى العمارات والاكواخ ·· فى المصانع والمؤسسات والحقول ·· ويجذب من كل مكان رجلا ويأتى به الى هذا الطابور ·· ان هذا الطابور قطعـة من الشعب ·· شريحة منه ·· فيها كل خصائصه العظيمة والوضيعة على السواء » ··

ان العمل الفنى فى « الطابور » ــ من ناحية المقاييس التحديدية لاركان القصة القصيرة ــ يخرج من خانة « القصة » ليوضع فى خانة « الصورة » ·· انه لا يمثل ذلك القطاع الطولى الذى تلتقى على امتداده ــ كما هو الحال فى القصة ــ تلك الخيوط الصانعة لنسيج موضوعى موحد ·· ونحن تبعا لذلك لا نرى شخصية بعينها تنمو على مدار التجربة من خلال الحدث ، بحيث تنتهى بنا الى موقف معين يتطور الى اتجاه ايجابى أو سلبى ، استنادا الى جوهر التكوين النفسى لهذه الشخصية أو تأثرها بشتى الدوافع الموجهة ·· فى محيط هذه المقاييس التحديدية نجد القصة القصيرة ، اما « فى الطابور » فهى « صورة » من حيث الاطار التكنيكى الذى يحيـــط بأبعادهـــا الموضوعية · هى مجموعة من القطاعات المستعرضة لحياة مجموعة من النماذج البشرية ، معروضة من خلال لحظة معينة تربط بين هذه النماذج من ناحية الموقف ، ولكنها لاتربط بينها من ناحية الاختلاف فى اتجاهات السلوك ·

هذه القطاعات المستعرضة فى نطاق مثل هذا التصميم البنائى، نجد لها مثيلا ـ مع الفارق بين طبيعة العمل الروائى وطبيعة الصورة القصصية القصيرة ـ فى رواية « الأب جوريو » للكاتب الفرنسى بلزاك وفى رواية « زقاق المدق » للكاتب المصرى نجيب محفوظ ... الشخصيات عند بلزاك خليط متنافر من الاحياء يجمع بينهم بنسيون مدام « فوكيه » ، ونفس هذا الخليط المتنافر تجده عند نجيب محفوظ فى « زقاق المـــدق » وتجده عند محمد ابو المعاطى ابو النجـا فى « الطابور » .. ومما يلفت النظر هنا وهناك ان النماذج الانسانية المريضة هى التى تحتل مكانها فى المقدمة من مسرح الاحداث ، وان كلا من « البنسيون » و « الزقاق » و « الطابور » قد بلغ مرحلة من التجسيم العادى ، جعلته يبدو وكأنه شخصية حية من شـــخصيات العمل الفنى .

واذا ما استعرضنا الملاحظات الذكية التى يمكن ان نلتقطها من وراء المفارقة ، يواجهنا موقف الكاتب وهو يرحب عقليا وشعوريا بأن يقف فى الطابور ويخضع لنظامه الصارم . ذلك لانه يريد « ان يمارس تجربة الديمقراطية على مستوى آخر غير مستوى الكلمات » ولكنه وهو يعيش فى قلب التجربة ، يكتشـــف اخيرا ان فى هذه الديمقراطية ـ ديمقراطية الطابور الذى تتجمد فيه الحركة ـ شيئا من الدكتاتورية .. « انه منطق الطابور اللعين يجعل كل فرد هنـا اسير مصيره ، اسير حظه الذى وضعه فى مكـــان لاحرية له فى اختياره » !

ونحن فى الطابور ـ ذلك القطاع الحى من قطاعات الحياة ـ قد نجد انفسنا رغم كل الجهود فى المؤخرة ، أو على الاقل خلـف اناس لا يملكون مثل رصدينا من القيم والامكانيات ، ســـبقونا لأن لهم وسائلهم الخاصة فى الوصول قبل غيرهم . ان الوصوليين فى

كل طابور تبطىء فيه الحركة أو تتجسد ، حريصون دائما على ان يحتلوا مكانهم فى مقدمة الصفوف ٠

وفى الحياة أكثر من طابور ، ولكل طابور وضعه ونظامه وخط سيره الحياتى الذى لجأ اليه عن ارادة أو غير ارادة ٠٠ وحين تلتقى هذه الطوابير كما التقت فى أول عمل فنى من اعمال هذه المجموعة ، يبدو كل طابور وهو غريب فى منطق الطابور الآخر ، وتتحول هذه الغرابة الى حركة تعبير خاصة ، تجسم وجهات النظر المتبادلة بين الطوابير : طابور صامت وكأنه يتخذ من الصمت شعار احتجاج صارخ على وضعه ومصيره ، وهو طابور الاولاد المشردين ٠ وطابور يعبر بوجهة نظر اخرى عنصرها اللامبالاة ووسيلتها للاداء اخراج اللسان وهز الارداف ، وهو طابور البنات الساقطات ٠ وطابور يواجه لغة التشرد ولغة السقوط بما يناسب اختلاف المستويات العقلية لجموع الواقفين فيه ، وهو طابور الراغبين فى اثبات وجودهم بطريقة رسمية !

وكل شىء فى الحياة انما يستمد قيمته من مقدار حاجتنا اليه : بقدر ما نحتاج يصبح الشىء فى تقديرنا وهو شىء ، وبقدر ما نستغنى يصبح الشىء فى تقديرنا وهو لا شىء ٠٠ ان قيم الاشياء نسبية بحتة : يحدث هذا عندما لا نحس شيئا من الفراغ والوحدة فى طابور الحياة ٠٠ فى مثل هذه اللحظة يبدو لنا الانسان العادى وهو كم مهمل لا حاجة بنا اليه ، اما عندما نمارس تجربة الوحدة والفراغ ومرارة السأم ، فاننا نتلهف على ان يؤنس وحدتنا ويقضى على سآمتنا اى مخلوق ولو كان ابله ٠٠ « الشيخ الذى امامى لايزال يقرأ،لايزال يتمتم بصلوات وادعية ، يبدو انه ليس لديه اى استعدادلأن يتحدث مع أحد ، كانما جاء الى هنا ليتفرغ للعبادة ٠٠ آه اين انت ياصديقى الابله ؟ ان الانسان لايدرك احيانا قيمة ان يتحدث اليه ، اى

شخص أى حديث ولو كان هذيانا ·· لاشك أن الحيوانات كائنات تعسة للغاية ، لأنها لاتستطيع ان تثرثر » ·

اما الواقعية بالنسبة الى الشخصيات فهى واقعية نمط ·· الرجل الذى يشتغل فى كل مهنة ولايستقر فى مكان ويتزوج خمس مرات وله اولاد لاتربطهم به صلة ، مثل هذا الرجل الابله نمط ·· والعامل الذى يشكو من الضغط المادى لحياة المدينة الكبيرة والذى كان الابله ينصحه بان يشتغل « مرسال صنف » ليحيا حياة مريحه ، مثل هذا العامل نمط ·· والموظف الصغير المثقل باعباء العمـــل ، والذى يحيله الارهاق المتواصل الى آلة تتعامل مع الناس على انهم مجرد اسماء وعناوين واعمار ومهن ، مثل هذا الموظف نمط ·· والشـــيخ الذى يذكر الله بطريقة ميكانيكية تشغله عن كل ماحوله حتى ليخيـــل اليـك انهـا تشـــغله عن الله نفســـه ، مثل هذا الشيخ نمط ·· وكل دمية بشرية كانت تقف فى طابور البنات أو طابور الاولاد وينبىء مظهرها الخارجى عن حقيقتها الداخلية ، مثل هذه الدمية نمط ··· وكل نمط من هذه الانماط البشرية يمثل مجموعة متشابهة من الاحياء ·

وحين نترك « فى الطابور » لنلتقى بالعمل الفنى الذى يليه وهو « حارس المقبرة » نجد ان هذا العمل الفنى قد اكتملت له كل الاركان اللازمة للقصة القصيرة : نجد فيه ذلك القطاع الطولى الذى اشرنا اليه من قبل ونحن نفرق بين القصة والصورة ، وقلنا عنه انه تتلاقى على امتداده تلك الخيوط الصانعة لنسيج موضوعى موحد · ونجد فيه الشخصية التى تنمو من خلال الحدث على مدار التجربة ، حتى تصل مع النمو النفسى المطرد الى عملية تطوير موقفية معينة · ان المشكلة التى يقدمها الينا الكاتب كنقطة ارتكاز للحدث تتحول بعد ذلك الى نقطة انطلاق للموقف المتطور ، هى مشكلة كل انسان فقير

ومحروم حين يضطر امام قهر الظـــروف وتحت ضـــغط الحرمان والحاجة ، الى ان يسلك سلوكا قد يبدو فى رؤية الناس وهو غير مشروع ٠٠ عبد العال هو الشخصية التى ترمز الى المشكلة ، وتشير الى جورها الطويلة الضاربة فى تربة الوضع الاجتماعى لأمثاله من ابناء القرية المصرية ٠ الانسان الضائع الذى يعيش الحياة يوما بيوم بلا أمل فى الحاضر ولا ضمان ، لجأ الى الموتى بعد ان فقد الضمان والامل فى صحبة الاحياء ٠٠ لجأ الى الموتى ليأخذ منهم ، لجأ الى الناس الطيبين الذين كانوا يرعونه ويرعون اماثله يوم ان كانوا على قيد الحياة ٠٠ لقد خلت الحياة بعدهم من الرحمة والخير ، وحين اتاحت له الظروف ان ينزل ضيفا عليهم قرر بعد تفكير مرهق ومعذب ان يمد اليهم يده !

محمد ابو المعاطى ابو النجا يقودنا الى هذه المسالك النفسية وهو يرسم لنا شخصية عبد العال من الداخل ٠ وهو فى اثناء الرسم كثيرا مايستخدم اللقطات الجانبية التى توضح بعض الاوضـــاع الخاصة للشخصية المرسومة : عبد العال وهو يقرر أن يسرق اكفان الشيخ عوض ليشترى بها كسوة لاولاده ، لا يقرر ذلك لأنه لص ٠٠٠ بل لأنه فقير ومحتاج ! والملاحظة الذكية التى تواجهنـــا من وراء المفارقة ، ان عبد العال قد كلف بان يكون حارسا للمقبـــرة يحمى اكفانها من سطو اللصوص ! ٠٠ انها المفارقة التى تجسم المشكلة من خلال ذلك الصدام غير المتوقع ، بين منطق الحياة ومنطق الاحياء ٠٠ المنطق الاخير يفرض عليه ان يقف موقف الحارس ، والمنطق الأول يرغمه على ان يقف موقف اللص ، ومن هنا يحدث الصـــدام المضحك او المبكى بين موقفين !

وعبد العال بعد ذلك ـ وتلك هى المفارقة الثـــانية ـ مازال محتفظا بقيمته كرجل عاش طوال عمره وهو عف النفس رغم انـــه

فقير ·· ولهذا لم يحاول ان يجرد الجثة من « كل » اكفانها كما يفعل اللصوص ، ولكنه يكتفى باخذ كفنين اثنين من اكفان الشيخ عوض الثلاثة · انه منطق الشرف حين ترغمه الحاجة ، وهو فى رأيه منطق عادل ·· ان بعض الاحياء من أمثاله لا يجدون الا ثوبا واحدا فى الوقت الذى يتدثر فيه الموتى بثلاثة اثواب ! لو كان الحاج احمد الذى يرقد فى القبر المجاور ـ والذى كان يمثل خلاصة الناس الطيبين ـ على قيد الحياة ، لوقف وقال بأعلى صوته : « يابلد لازم نكفن الميت فى كفن واحد وبقية قماش الكفن نفرقه على الناس الغلابة » !

وعبد العال وهو يرتجف تحت برد الليل وقسوة المطر ، تتلون افكاره بالوان اللحظة النفسية التى تمر به وتعكس الوانها فى حلم من احلام اليقظة : « كان يتصور ان شريطا عريضا من قماش الاكفان ينبعث من هذه المقابر يشده رجلان ، وان هذا الشريط يمكن ان يغطى القرية كلها ويصنع فوقها خيمة كبيرة لايخترقها المطر » !

والكاتب يبرز لنا ـ من اعماق احدى الزوايا فى عمله الفنى ـ جانبا من الجو العقائدى الذى يعيش فيه كل الفقراء والمحرومين ·· انهم يحلمون بالعالم الآخر ، بالجنة ، بتلك المائدة الحافلة التى يمكن ان تعوضهم عن كل ما وجدوا فى عالمهم من حرمان · فتحية بنت عبد العال ـ وهى تتحدث الى ابيها بجوار القبر ـ تمثل هذه الاحلام العقائدية التى يلقنها الكبار للصغار ، والتى تمثل بدورها واحدا من الشعارات النفسية لطبقة معينة من طبقات المجتمع ·

الى هنا ومحمد ابو المعاطى ابو النجا يجسم المشكلة من خلال الملاحظة الذكية وهى فى قالب المفارقة · ولكن المشكلة حين تتحول الى مأساة ، تبلغ ذروة التجسيم من داخل عملية السرد نفسها فى الموقف الاخير من مواقف القصة ·· موقف عبد العال وهو مهدر الآدمية تحت اقدام القطيع البشرى فى حوارى القرية ·

ان اعنف مايهزنا من موقف الانسانية فى لحظات الضعف ، هو ان يتحول ضعفها النبيل الى ذل رخيص وتافه ·· اذا كان الذين يحيلون ضعف الانسان الى ذل ، رخصاء وتافهين !!

على ضوء هذه الذروة التجسيمية يمكننا ان ننظر الى مأساة عبد العال ·· ان الكاتب يرسب المأساة فى نفوسنا ترسيبا عميقا عن طريق عملية التصوير المادية لحركة الموكب الثائر الشامت ، موكب القرويين وهم يزفون بطل القصة · من داخل هذه (الحركة) لم نكن نرى وجه البطل ، ولكننا كنا نستخلص الصورة الحقيقية لهذا الوجه من خلال الواقع الايحائى ، بكل مايرتسم على قسماته من ذل صامت أو معبر · لقد استخدم الكاتب حركة الموكب كمجال خلفى كبير للصورة المرسومة ، وفى نهاية الحيز الامتدادى لهذا المجال الخلفى الكبير ، نرى اللمسات الاخيرة التى تكمل ما فى الصورة من زوايا وابعاد ··· عبد العال معروض امامنا بواسطة موكب آخر يفترق عن الموكب الأول ، فى كونه يعلق ولا يتحرك · موكب من النساء يكتفى بان يزف بطل القصة بمجموعة من الكلمات تمثل فى جملتها وجهتين من وجهات النظر : « يعنى كان حد قال له يروح يسرق الكفن ؟ دول ناس آمنوه لانه راجل طيب يقوم يعمل كده ؟ والله ماتخافى الا من الطيبين دول » ·· « هوه لو ماكانش طيب كان اتمسك ·· اولاد الحرام اللى بيسرقوا كتير ، انما ده كونه راجل طيب مسكوه » ·· وجهتا نظر تقدمان الينا الجوهر الحقيقى للطبيعة البشرية ممثلة فى موقفين : موقف الذين يسيئون الظن بالانسان ، وموقف الذين يحسنون الظن بالانسان !

ومرة اخرى نجد الاركان الفنية اللازمة للقصة القصيرة ، تكتمل بصورة ملحوظة فى « الآخرون » ·· وهى العمل الثالث من اعمال هذه المجموعة · بطل القصة ـ وهو مراسل حربى لاحدى

الصحف المصرية فى معركة القنال ـ نموذج بشرى يمثل نمطا من الاحياء فى المجتمع المصرى وكل مجتمع آخر ٠٠ نمطا يحدد اتجاهه السلوكى دافع واحد ، هو حب الذات ٠ الحب الذى تنكمش فيه « الانا » بحرص بالغ داخل قوقعة الفردية ، ثم تتضخم جـــدران القوقعة ذلك التضخم الذى يحول دون رؤية العالم الخارجى ، هناك حيث يقف الآخرون ٠٠

وبطل القصة ـ من خلال زاوية اخرى من زوايا صـــــورته العامة ـ شخص يتحدث الى الناس بلغة اخرى غير اللغـــة التى يتحدث بها الى نفسه ٠٠ انه مع نفسه ـ حين ينفرد بها ـ شـجاع لا يخشى الصراحة ، ولكنه مع الناس ٠٠ جبان تعيش مشـــاعره الحقيقية فى الظلام ٠ ومن هنا كان الدافع الرئيسى الذى حبب اليه دوره الصحفى فى معركة القنال ، هو ان يلقى هؤلاء الفدائيين عن طريق التسلل الى حقيقتهم النفسية ، ليعرف اى سر يكمن وراء المقامرة بحياتهم فى سبيل هدف ـ هو بالنسبة اليه ـ غير منطقى وغير واضح ٠

« انه يفهم ان يكافح الانسان من أجل سعادته ٠٠ ان يناضل ، ان يتألم ، ان يشقى من اجل حياة سعيدة ٠ اما ان يفقد الانسان حياته نفسها ، فهذا ما لا يمكن تصوره بحال ٠ هل هناك شىء اغلى من الحياة ذاتها ، حتى يمكن ان نبذلها من اجله ؟ يقولون الحرية ! ولكن ، ماهى الحرية ؟ انها احدى حاجات الحياة ٠ وحين نفقـد الحياة ، نفقد معها حاجتنا الى الحرية ٠ يقولون : الحرية من أجل الآخرين ٠ ولكن ، من هم الآخرون هؤلاء ؟ انه لايكاد يحس بهم ٠ وهم ايضا ، هل تراهم يحسون به ؟ هل يحسون به الا حين يحتاجون اليه ؟ وهل يحس بهم الا حين يحتاج اليهم ؟ وحين يموت الانسان ٠٠ ماذا يبقى منه ليحتاجه الآخرون » ؟

هذا التحليل الموفق الذى يرسم به الكاتب خط الاتجاه النفسى لنمط انسانى معين يمثله بطل القصة ، هو بمثابة عنصر التبرير الموضوعى لموقف البطل ازاء الحياء وازاء الآخرين ·· ان الواقع الداخلى لمشكلة هذا النمط من الاحياء ، هو وقع السلبية المطلقة التى تحول دون التعاطف الشعورى بينهم وبين الغير ، وتحصرهم داخل وجود انعزالى تفصله عن وجود الآخرين ، زحمة الدوافع الفردية · والكاتب امام هذه الزحمة قد وقف واعيا ليختار ، ليقطتع من جسم الواقع أهم منطقة نفسية يمكن ان يجسم من خـــلالها المضمون الكلى للمشكلة ·· مشكلة السلبية الطاقة ·· وذاك حين وضع بطل القصة ـ وهو رمز النمط البشرى المنعزل تجاه حركة دفع ايجابية هدفها افدح تضحية فى سبيل المجموع !

اننا نرى البطل ـ فى المرحلة التخطيطية للحدث ـ وهو يناقش أحد الفدائيين محاولا من وراء النقاش ان يتسلل الى حقيقته النفسية ·· وفى تلك الاثناء تقبل عليهما عربة جيب انجليزية ثـــم تقترب ، ويطلق جنودها النار فى هجمة مفاجئة ··· ويرد الفدائى بالمثل فيصيب العجلات وتتعطل العربة من السير فى منطقة مكشوفة ··· وتبدأ معركة ظالمة غير متكافئة ·· بندقية واحدة تناضل ضـــد مجموعة من البنادق تحصن اصحابها وراء عربة الجيب · واخيرا تتوقف البندقية الواحدة بعد ان عجزت عن الصمود فى وجه ســيل جارف من الرصاص · ويصمت الفم الذى تحدث حتى الثرثرة ، عن عذوبة التضحية فى سبيل الآخرين · ويتحول الحدث الى موقف بالنسبة الى المراسل الصحفى ، ويتكشف الموقف على سوء عملية تطوير ايجابية ··

« وفى هذه اللحظة كانت مشاعر محمود ـ المراسل الحربى ـ تعانى انقلابا هائلا ·· لقد بدأ يحس كأن حسن ـ الفدائى المصرى ـ ليس شخصا آخر منفصلا عنه ، وانما يحس كانه قد صار قطعة

منه ·· ووجد نفسه يزحف الى جواره ، ويأخذ منه البندقية ، ويغير مكانه قليلا ، ويعاود اطلاق الرصاص ·· ولا يدرى كيف حدث ذلك ايضا ، لقد احس كأن حمى هائلة تجتاح كيانه ، وتكتسح امامها كل خوف او تردد ·· وفجأة توقفت البندقية وادرك أنه قد اصيب ·· انه هو الآخر سيموت ، ولكنه لم يمت بعد ، انه لا يزال حيا ·· ان حسن هو الذى منحه هذا القدر من الحياة ، هذه اللحظات التى يعيشها الآن · وبدأ يدرك أنه هو الآخر يمنح الحياة اناسا آخرين : يحس بهم كانهم ايضا قطعة منه ·· ولاول مرة بدأ يدرك الصلة التى تربطه بهم · انه يمنحهم الحياة التى يفقدها هو ، أنه يتيح لحياتهم أن تستمر ، ان تبقى ، ان تمتد ·· وذاب فى اعماقه شعور بالاسف انه يفقد الحياة بعد ان عرفها لأول مرة · وادرك فى قسوة انه لم يعش قبل هذه اللحظات ، لا بل كان يعيش ·· كان يعيش داخل قوقعة مظلمة ، داخل ذاته ، وحين انطلقت بعض الرصاصات وحطمت تلك القوقعة ·· بدأ يحس بالآخرين » ! ·

ان القصة ـ كعمل فنى ـ تصوير للواقع وتجسيم للمشكلة ، ووراء التصوير والتجسيم شىء يريد ان يقوله لنا الكاتب ·· محمد أبو المعاطى ابو النجا يقول لنا هذا الشىء فى كثير من اعماله الفنية · قاله لنا فى « الطابور » وفى « حارس المقبرة » كما قاله لنا فى « الآخرون » ·· انه هنا كما كان هناك صاحب رأى أو صاحب فكرة · وكل منهما ـ اعنى الرأى والفكرة ـ يمكن ان يستخلصه الناقد والقارىء من اعماق المضمون الاتجاهى للمشكلة المعروضة · انها خصيصة اخرى من خصائص المدرسة التشيكوفية ، وكاتبنا ـ كتلميذ مجتهد فى هذه المدرسة ـ يريد ان يقدم لنا هذا الرأى ·· ان مشكلة السلبية التى تمارسها بعض الانماط البشرية فى حياتنا لايمكن ان تعالج بالنظريات ، وانما تعالج بكل وسيلة عملية ·· الانعزاليون لايمكن ان نعلمهم معنى الارتباط بالحياة الا اذا دفعناهم دفعا الى

قلب الحياة ، الا اذا صهرناهم فى بوتقة التجربة · الانانيون لايمكن ان نلقنهم دروس البذل والعطاء الا على يد فئة معينة ، فئة بلغت درجة الاستاذية فى مدرسة التضحيات · فلنضع هؤلاء السلبيين امام الايجابيين وجها لوجه ، ومن التقاء القطب السالب بالقطب الموجب ، يمكن ان تندلع شرارة الاحساس بشرف الفناء ·· فى سبيل المجموع ! ·

والكاتب فى عمله الفنى الرابع : « خروج عن الموضوع » يريد ان يقول لنا كعادته ، هذا الشىء الذى يمكن ان تستخلصه عن طريق الايحاء ·· اننا فى هذا العمل الفنى امام « صورة » من حياة مدرس فى مدرسة بنات ، مدرس يضيق بخروج تلميذاته عن المعنى المحدد لموضوعات الانشاء ، هذا الخروج الذى كأن هناك يدا خفية ترغمهن عليه ، ويجد نفسه ـ حيال الظاهرة المتكررة ـ اعجز من ان يصل الى تفسير معقول ··· والعدسة اللاقطة تصور لنا تلال الكراريس ، وعناء المهنة المرهقة ، والملامح النفسية للتلميذات من خلال الموضوعات الانشائية ، وشخصية الاستاذ حسين المدرس كواجهة عرض تجسمية لمجموعة المدرسين ، وذكاء الملاحظة وهى مصبوبة فى قالب المفارقة ، حين يلتقط الكاتب منظر الصدام المضحك بين منطق الحياة ومنطق الاحياء ·· المنطق الاخير يفرض على الاستاذ حسين ان يطالب تلميذاته بعدم الخروج عن الموضوع ، وحين يكتب الاستاذ خطابا لصديقه ، يرغمه المنطق الأول ـ منطق الحياة ـ على ان يخرج هو نفسه وبلا ارادة عن الموضوع ··· ان اتجاه المضمون يوحى الينا بهذا الشىء الذى يريد ان يقوله لنا الكاتب : ان الحياة تعاملنا فى كثير من الاحيان بمثل هذا المنطق ·· قد تكون لنا قيم معينة نحرص عليها ، أو خط سير مستقيم نطالب الغير بان يسلكه ونفرض على انفسنا ان نسير فيه · ومع ذلك ، فما اكثر ماترغمنا

يد خفية أو ظروف ضاغطة على ان نخرج بلا ارادة عن موضـــوع حياتنا الذى اخترناه ! ٠

واذا ما انتقلنا الى العمل الفنى الخامس فى هذه المجموعة ، واجهتنا « تجربة مع الموت » ان المضمون الاتجاهى فى هذه القصة كما هو فى « الآخرون » التزامى هادف ، قطاع من حياتنا فى لحظة صراع بطولى من خلال معركة عاشها كل منا بوسيلته الخاصة : الفدائى بروحه ودمه ، والكاتب بوجدانه وقلمه ٠٠ بطل القصة وهو خارج التجربة ، كان قد رسم للموت صورة محددة الملامح مكتملة الخطوط ، ولكنها ـ على الرغم من ذلك ـ لم تكن صورة حقيقية ٠٠ ملامحها لم تكن مستمدة من الواقع المعيش ، وخطوطها كانت تنطلق من جوانب الوجود الخارجى للموت ٠ اما حين اصبح داخل التجربة، فى أعماقها ، بين جدرانها المطبقة ، فقد عجز عن تحديد موقفه العقلى والشعورى ازاء الموت ٠ وعجز تبعا لذلك عن ان يقدم الينا صورته ٠٠ ان صورة الموت ونحن خارج التجربة تعد نوعا من التصور ، اما ونحن داخل التجربة فان الرؤية تتعذر ، وتتعطل الحواس المهيأة لعملية التصوير ٠٠

هذ هى الدلالة الايحائية التى نستخرجهـا من المنعطفـات الاتجاهية للمضمون،كلون من الاضافة التفسيرية الى المشهد الواقعى المكون من احداث ومواقف ٠ ولكن محمد أبو المعاطى أبو النجـا يخطىء هذه المرة فنيا واتجاهيا وهو يقدم هذه الدلالة الايحائيـة الى القارىء فى بداية القصة ٠ ان الايحاء بالفكرة يفقد كل مافيه من عوامل الاثارة ، اذا لم يستخلصه القارىء أو الناقد من السلوك الموقفى للشخصيات ٠٠ هذا السلوك الموقفى اشبه بمجموعة من الغرف المغلقة ، على الكاتب ان يعطينا مفاتيحها وينصرف ٠ وعلينا نحن بعد ذلك ـ ما دامت المفاتيح موجودة ـ ان نقوم بتلك المحاولة

المثيرة ، محاولة اكتشاف ما فى الغرف المغلقة من محتويات نفسية، اما ان يسبقنا الكاتب الى مثل هذا العمل ، فماذا يبقى لنا ليثير فينا متعة البحث والتنقيب ؟ ! ٠

ونخطو بعد ذلك خطوات أخرى الى هاتين القصتين وهما : « مملكة نبيل » « وفتاة فى المدينة » ٠٠ ان التخطيط الاطارى والموضوعى لهاتين القصتين ـ فى حدود أحداثهما ومواقفهما والتكوين النفسى الخاص للشخصيات ـ تخطيط ناضج ٠ ولكن المشكلات فيهما كما يعالجها الكاتب مشكلات فردية ، ومن هنا لم تكن واقعية النماذج البشرية المعروضة واقعية نمط ٠٠ ترى هل نجد الكثير من امثال نبيل ، فى مثل البيئة التى نشأ فيها والتكوين النفسى الذى صنع منه هذا السلوك ؟ هل نجد نماذج متعددة من طراز هذا الفتى الصغير الذى يحس سعادته الحقيقية فى حرية الانطلاق وحب الناس والتجاوب معهم ، ولو ضحى فى سبيل ذلك بجزء من دخله اليومى وهو فى اشد الحاجة اليه ؟ صحيح ان الكاتب قد قدم الينا عنصر التبرير الموضوعى لهذا السلوك ، وهو ان الفتى الصغير ـ حين قرر ان يترك عمله الممل فى دكان البقالة ـ كان قد مارس من قبل نفس التجربة الشعورية التى تصنع من اندماجه مع الناس مملكته الكبيرة ، يوم ان كان بائعا للصحف يجوب القرى العديدة جريا وراء الرزق ٠٠ ولكننا مع ذلك لا نجد فى بيئة نبيل كثيرا من أمثاله ٠٠

اننا فى واقعية النموذج الفردى لا نحس احساسا كاملا بان الشخصية تنبض بدم الحياة والحركة ، بل ان الاحساس الذى يتعرض له هو ان الشخصية لم تكن الا « مجرد » رمز لفكرة فى ذهن الكاتب ٠٠ هذه الفكرة هى اننا نستطيع ان نخلق من حب الناس مملكتنا الخاصة ! ان هناك فارقا ملموسا بين واقعية النموذج

الفردى وواقعية النمط الجماعى ... الشخصيات فى الواقعية الأخيرة لاتتحول الى رموز لافكار ، ولكنها تتحول الى رموز لمشكلات اجتماعية ضخمة ، تستمد ضخامتها من ضخامة الكم العددى الذى يمثلها من النماذج الانسانية ، كما رأينا ذلك بصورة مجسمة فى « الآخرون » و « حارس المقبرة » ، واذا وجدنا فى واقعية النمط شيئا من الرمز لفكرة ، فهو كما قلنا لون من الاضافة التفسيرية التى يستخلصها القارىء من المضمون الاتجاهى لمشكلة يعيشها المجموع .

وما نقوله عن شخصية نبيل نقوله عن شخصية الفتاة المأزومة التى عقدتها طبيعة العلاقات السطحية المنهارة فى حياة المدينة .. ان الكاتب يثير عطفنا على البطلة وهو يكشف الازمة تكثيفا نفسيا مطردا يتناول الجذور والامتدادات ، ولكننا نشعر ان التركيبة النفسية للبطلة كانسانة مرهفة الحس ، لا تمثل ظاهرة عامة .. صحيح اننا حين نتعرض فى قلب المدينة الكبيرة لأزمة من ازمات فقد الثقة فى قيمة من قيمه،صحيح اننا تبعا لذلك قدنفقدثقتنافىكثير من امثال هذه القيم ، ولكن هذا لايحدث كثيرا بالنسبة الى القيم العاطفية التى تعيش فى أعماق الصخب والضجيج .. ان الأغلبية المطلقة من فتيات المدينة قد ألفن هذه العلاقات السطحية المنهارة ، لدرجة ان الفتاة التى ترمز الى هذه الاكثرية اذا فقدت ثقتها فيمن تحب ، فان ذلك قد لا يترتب عليه ان تفقد ثقتها فى الآخرين .. البطلة التى اختارها الكاتب اذن تمثل واقعية النموذج الفردى ، ولا تمثل النمط فى محيط المشكلة الجماعية !

أنور المعداوى

الفهـرس

● فتاة فى المدينة ٣
فتاة فى المدينة ٥
تجربة مع المـــوت ١٣
خروج عن الموضوع ٢٧
الآخـــــرون ٣٧
حارس المقبـــرة ٤٥
فى الطابـــور ٦٧
مملكـة نبيـــل ٩١
● الابتســـامة الغامضـــة ١٠٧
الابتســـامة الغامضـــة ١٠٩
ســحابة الغيـــار ١١٩
الســـباق ١٣٣
قرية ام محمد ١٥٣
حادثـة الوابـــور ١٦٧
الرحيـــل ١٨١
حـــق ١٩٩
مد البحـــر ٢١١
نائـب الرئيس ٢٢٣

الاسـلاك الشائكة ٢٣٣
الصديق الذى لايرحـم ٢٤٣
● الناس والحـب ٢٥٧
الاهــداء ٢٥٩
الناس والحب ٢٦١
العنكبـوت ٢٧٣
الصـمت ٢٩١
ذراعـان ٢٩٩
النـاس والحقيقـة ٣١٣
زيـارة ٣٢٩
لقـاء ٣٤١
العودة من المنفـى ٣٥٧
رسـالة ٣٧١
ثلاث رسائل من امرأة مجهولة ٣٨٧
دراسـة نقديـة ٣٩٥

رقم الايداع ١٩٩٢/٥٠٦٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3071 — 0

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب